شفيق معلوف

حبّات زمرد

الأدب العربي الحديث
حكايات ألف ليلة وليلة

أدب/ نقد

شفيق معلوف

حبات زمرد

الأدب العربي الحديث
حكايات ألف ليلة وليلة

دراسات وطرائف شرقية

أدب / نقد

الدراسة الاولى

الادب العربي الحديث

ملخص محاضرة ألقاها الشاعر باللغة
البورتغالية في جامعة سانباولو البرازيل
بطلب من « نادي القلم الدولي » عام ١٩٦٠

- ١ -

توطئة وعرض

خرج العالم العربي من الحرب الكونية الأخيرة ، وبين يديه ثمار مباركة، لتجربة أليمة استغرقت حقبة طويلة من قرون الانحطاط فاليقظة فالجهاد . وكأنما كتب على استقلال شعوبه أن يولد مع عهد الذرة ، فارتفعت راياته على دوي تفجرها . وشعر أبناؤه أن ماتالوه من نعم الاستقلال ، لم يكن غير نتيجة لتصادم المصالح الدولية ، فراحوا ينشدون مستقراً لقلقهم ، ومرتكزاً لشكوكهم . وظلوا يرمقون الفرنجة بعين الريبة وهم لايرون في مستمر الأمس الا ماكان يقوله أجدادهم : إن استوى فسكين ، وإن اعوج فمنجل .

هذا في معترك السياسة . أما على صعيد الأدب ، فقد كان من أمرهم خلاف ذلك . فالقنبلة الذرية لم يقتصر فتكها الذريع على خضخضة الفضاء وقلب معالم التاريخ والعلم . بل زعزع فعلها عالم النفس البشرية فطبق جواءها ، وقوض أركانها . وبعد أن كان مستولياً على المرء جنون دوران الدواليب ، راعته قوة لاعهد للبشر بمثلها ، حملته على استعجال الحاضر قبل زوال الغد . فراح يركض في الميادين ركض المجانين . وراتد السرعة في التفكير ، واستعجال الانتاج على صعيد كل من العلم والعمران والأدب . فضوءلت عناية الكاتب بنثره ، والشاعر

بشعره ، والرسام برسمه ، واختل التوازن بين مايتطلبه العصر من سرعة والفن من تمهل وراح الجميع يهبطون السلالم وفي روعهم أنهم يصعدون . وازدحموا في مسارب الدروب كأنهم يسابقون غول الذرة ، أومارد القمقم ، الى تدوين سطرهم في سفر الكون قبل أن تودي قنابل الذرة بكل مافي الكون .

وبمثل تلاطم الموج ، راحت تتلاطم نفسانيات البشر . وقمنا نتساءل أكان العرب الأقدمون على حق حين قال قائلهم : « إذا زلّ العالِم زَلّ بزلّته عالَم » ؟

وفي هذا الجو الموصوف بالخوف والحيرة ، أقبل النشء الجديد على أعقاب طلائع النهضة الأدبية في دنيا العرب ، ووقف على مفرق الدروب يتقرّى على ضوء ثقافته الحديثة دروباً جديدة . والتفت الى قوافل النهضة الاولى في أواسط القرن الفائت ، وقد حاول رجالها محاكاة أدباء القديم ، فكان لنا من وراء ذلك طائفة الكلاسيكيين الذين ازدان بهم أدب العرب في ذلك القرن . ثم نظر النشء الى من جاء بعد تلك الطلائع من رواد التجديد الرومنطيقيين في الربع الأول من القرن الحالي . ثم الى دعاة البرناسية والرمزية من أدباء مابين الحربين فرأى أن رواد الطليعة قد أخذوا عليه تلك الدروب جميعها . ولما كان يجيش في صدور فتيانه توقٌ الى الاتيان بجديد في الشعر والنثر فقد راحوا يناضلون في هذه الميادين بسلاح جديد هو الأدب الحديث الذي نحن جادون في الكلام عليه .

- ٢ -

نظرة في الادب الحديث

كانت الثقافة الفرنسية حتى أواسط هذا القرن ، أعمق الثقافات أثراً في أدبنا العربي . وما وضحت فيه معالم الادب الانكليزي والاميركي إلا بعد الحرب العالمية الثانية . فبعد أن كانت المناهج اللاتينية من رومنطيقية ورمزية وسواها هي المناهج السائرة كما قدمنا ، نشطت طائفة الأدباء الحديثين الذين تأثروا بالاساليب الأنكلو ـ اميركية التجديدية كالصورية Imagist والشعر الحر وسواهما من المذاهب الممثلة بالشاعر الاميركي عَزْرا لُومِسْ باوْنْدْ Ezra Loomes Pound وبالشاعر الأميركي الذي اعتنق الجنسية البريطانيــــة ، توماس ستيرنس إليوت وسواهما . كما أنهم تأثروا أيضاً بالمدرسة الفرنسية السريالية التي رفع علمها سنة ١٩٢٤ أندريه بريتون والتي تَمَتَّتْ بما فيها من غرابة وتجهم وشذوذ ، وانحراف عن المنطق ، الى الشعراء جيرار ده نرفال ، ورلمبو ، ولوتريامون ، وأبولينير ، وشعراء المدرسة الدادية .

من هذا الخليط الثقافي المترجح بين الرمزية والسريالية ، انبثق أنصـــار الحديث ، هدفهم نشر الشعر الحر ، وتطويع الشعر العربي للاغراض المحـدثة ، والخروج بأساليبه على النمط التقليدي . ولم يكونوا هم اول البـادئين بمثل هذه المحاولات في عصر النهضة ، فالشعر الحر قد عولج من قبل ، كما أن التطويع ليس جديداً فقد شرع به من قبلهم آخرون . ولكنهم أول من سلكوا سبلاً غريبة على اللسان العربي ، لم يعهد مثلها تاريخنا الأدبي في الشـذوذ والانحراف عن قابلية الشعوب العربية ومفاهيمها .

- ٣ -

أغراض الشكل في الأدب الحديث

الشعر المطلق أو المرسل

ان من مظاهر التجديد في الأدب الحديث معالجة الأغراض الشعرية في النثر المقطّع على السطور . وهو ما اصطلحوا على تسميته بالشعر المطلق أو المرسل، وكان في حلٍّ من الأوزان والقوافي . وهذا الأسلوب قديم في الآداب الغربية ، وغير جديد في أدبنا المعاصر ، فقد انتهجه في مطلع هذا القرن الريحاني وجبران ، متأثرين بأدب ويتمن . والأسلوب نفسه لايُعدّ في الشعر بل هو نثر شعري .لأنه لم يجعل من الريحاني شاعراً وان كان هو البادىء به . أما جبران ، فلئن عد في الشعراء فلأنه قرض الشعر ، وليس لأنه صب أغراض الشعر في نثره . وفوق كل هذا فهو قد غلب فيه لقب الكاتب على لقب الشاعر .

بيد ان هنالك شعراً موزوناً غير مقفى ، نادى به منذ عشرات السنين نقولا فياض في مصر،والزهاوي في العراق . فلم يتردد له صدى،ومات فور مولده.

الانتقاض على العمود الشعري

اما الانتقاض على العمود الشعري التقليدي ، فقد بدأه العرب في الاندلس وتأثر بأسلوبهم هوغو في « مشرقياته » كما هو معلوم ، فأنشأوا الموشحات وجعلوها مسمطات ومزدوجات او فِقَراً واجزاء على نظام متعاقب وقرار موسيقي معين ، كالسونيتو مثلاً ، بعد ان كانت قصائدهم التقليدية موحدة القافية .

وهنالك نهج حديث في التقفية ، لايتقيد بقاعدة ، يطلق فيه الشاعر

لذوقه الفنان في اختيار مواضع القوافي من الابيات والشطور ، او مجازي التفاعيل، طوعاً لسليقته الفنية ، أي قيد او نظام . وهو نهج كنت اول سالكيه في بعض اناشيد « عبقر » منذ طبعتها الاولى التي يرجع نظمها الى ماقبل العام الثلاثين من هذا القرن . ولا اجهل ان شاعراً سواي عالجه من قبل . وقد اصبح هذا النوع الذي اصطلحوا على تسميتـــه بالشعر الحر ، قواماً للكثير من الشعر الحديث ، وسيكون هدفاً لشعر المستقبل كما أعتقد ، لانه هو الاكثر طواعية لاغراض العصر ، يقضي على استقلال البيت الواحد ، ويعين على الاسترسال في عرض التجربة في شعر متماسك الاركان متوحد اقسام البناء ، ويفضي الى نظم الملحمة والمطولة والمسرحية . وكلها لم يخل منها الشعر القديم الا لتمسكه بالعمود الشعري التقليدي القائم على القافية الموحدة .

النثر الشعري بين العرب والفرنجة

اما رأينا في المقابلة بين النثر الشعري العربي والنثر الشعري عند الفرنجة ، فهو ان لشعرهم ايقاعاً غير ايقاع شعرنـا ، يقوم على تعاقب المقاطع المتساوية . وقراءة المقاطع عندهم في النثر والشعر هي هي لاتختلف . حتى نراهم لايأبهون الوقوف على القوافي فيتلى الشعر عندهم كما يتلى النثر ويتشابه كلاهما في الواقع لاستتار القافية . اما عندنا فقوام الايقاع تعاقب الحركات واختلاف تعددها قبل الوقف بالسكون . مما يجعل لها في النسب الموسيقية وقتاً ونصف وقت . ويجعل طابع تلاوتها في الشعر غيره في النثر . ناهيك بالقافية في الابيات المستقلة . فالوقف عندها طبيعي . حتى اننا نرى اتصال آخر البيت بما يليه في بعض الشعر الحديث غير مخل بالايقاع . فلا يقرب الشعر من النثر كما عند الفرنجة . ولذلك فالكلام عندنا اما ان يكون شعراً واما نثراً بسبب الخصائص المذكورة . وقد قال كارليل:

كل شعر يُنقل الى النثر ولا يفقد قيمته ، فهو نثر وان يكن في اصله موزوناً مقفّى .

حذف أداة التشبيه

ومن مظاهر التجديد حذف أداة التشبيه ، على مذهب فاليري وكلوديل. وهو من أساليب البديع العربية المعروفة . وطالما وردت في الشعر القديم من مثل:

واستمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

أو قول الآخر :

فطفقتُ أمسح مقلتيَّ بجيدها من عادة الكافور إمساك الدم

ولكن المجددين ينادون بهذا النهج وقلما يجرون عليه . ومع أنه مستحسن في الأدب فهو مما يعود أمره الى ذوق الشاعر أو الكاتب .

ترديد الكلام

أما ترديد الكلام وتكريره المتواصل في الأدب الحديث فلا رأي لنا فيه الا ماقالته جارية ابن السماك يوم سألها : كيف ترين ماأعظ الناس به ؟ فقالت هو حسن الا انك تكرره . قال انما اكرره ليفهمه من لم يكن فهمه . قالت الى أن يفهمه البطيء يثقل على سمع الذكي .

- ٤ -

أعراض المحتوى في الأدب الحديث

ذلك من حيث مظاهر الأدب الحديث . أما من حيث محتواه وجوهره فيشمر بخليط من مناهج أدبية كثيرة تماشي المناهج اللاتينية منذ الرمزية والسريالية ، حتى الثنائية الكونية Cosmos والواقعية الحدسية Intuition والواقعية الكونية .

والشعر الرؤوي Onerique وآخرا الشعر « السوبر فينـاليست » في فرنسة . أو ماالختطه الأنجلوأمير كيون لأنفسهم من مناهج منذ الشعر الحر الشكسبيري «حتى رمزية ادغاربو ، حتى الشعر التصويري (الايماجي) في حاضر عزراباوند،واليوت وإيديث سيتويل .

بين الهدم والبناء

وان هنالك انتقاضا عاما على الأساليب القديمة مغالاة في التصوير،واستنادا الى المناهج الخطابية في التأثير ، وغلبة الصنمة على صدق التجربة ، والتباين بين هزال المحتوى وجزالة الديباجة، كما ان هناك اجماعاًعلىوجوب شق طريق جديدة يلجها الشاعر الجديد بتجاربه الخاصة ومعضلاته المنبثقة منـــه ومن ابناء عصره وقضايا عصره مطالب وجبهة رصينة تبسطها الثقافة التي تهدم للعبقرية التي تبنى.

ولكن الهدم لا يكون صالحاً مالم يسبقه تصميم بناء . فأين هو هذا التصميم؟

لقد وضع تصميم البناء هذا ، ورفع صرحه في شعرنا المعاصر قبـل أن ارتفعت أصوات الأدب الحديث . ففي المهجرين الشمالي والجنوبي ،في نيويورك وفي سان باولو ، انبثقت مطولات شعرية هي حسب تتابع صدورهـا : « المواكب» لجبران ، و« الأحلام » لشفيق معلوف ، و« على بساط الريح » لفوزي معلوف ، و« عبقر » لشفيق معلوف و « الطلاسم » لأبي ماضي،و « أحلام الراعي »لفرحات فضمنت هذه المطولات شموخ صرح التجديد وتماسك جذره وثبـات أسسه - وتعاقب في أنحاء العالم العربي ، لاسيما لبنان والعراق ومصر ، صدور بضع مطولات شعرية ، وقصائد متفرقة في أغراض تختلف جداالاختلاف عن أغراض الشعر القديم، وتطابق في قليلها أو كثيرها مايطالب به الأدباء الحديثون .

الروامم

وان لمن أغراض الشعر الحديث التخلص من التعابـــير البالية المسماة « كليشهات » وهو أمر لاغنى عنه للتجديد حتى يكون تجديدا . ولكنه يتطلب قدرة فنية كاملة كي لايجيء التعبير نابيا عن اصالة الذوق ، مغالى به في الواقعية ، مشوباً بما درج الادب الرفيع على التنكب عنه . فهل ان استعمالنا ألفاظا شائنة هي من ألفاظ الشارع أو كلاما من مباذل حياتنا هو ليس من الفن في شيء ، مما يزيد الأدب غنى في وزنه أو تعابيره ؟ أو هل التجديد في الاداء هو ان نرى الشاعرة الاميركية ايديت سيتويل قد ودت الخروج على تعبير « صياح الديك » لما فيه من الابتذال في الدلالة على طلوع الصباح ، فراحت تقول ان « الضوء ينهق كالحمار »؟ أين هذا من براعة اللمس في ريشة الفنان لنصفق له ونستسيغه ؟ بل أين هو من الفن الرفيع المتجلي مثلا في قول شكسبير الكلاسيكي عندمارمز الى قرب طلوع الصباح فقال : « . . . حين بدأ يبوح بريق الحباحب »

يجب أن نحطم في شعرنا الحديث « الكليشهات » متى وفقنـا الى الاروع الابدع . أما في غير هذا فأنا ممن يؤثرون صياح الديك على نهيق الحمار .

تعمد الغموض عند العرب والفرنجة

هذا وان من أغراض الشعر الحديث أيضا تعمد الغموض والتعمية ، لحمل القارىء على كد ذهنه والانطلاق بجناح خياله لمشاركة الشاعر أو الكاتب في عملية الخلق . وأرى أن عملية الخلق لو كانت في مكنة القراء لكانوا شعراء وكتابا . كما أنني أرى مايراه أمين نخلة من أن عيب الكتابة المبهمة ليس في كثرة المعاني بل في خلوها منها .

الايحاء في الرمز هو غير الابهام والتعمية ، والايحاء بالمعاني هو غير الالغاز فيها . قال العتابي : « الالفاظ أجساد والمعاني أرواح وانما نراها بعيون القلوب » .

اما البراعة في الايحاء والايحاء فهو ان نجعل من الاوهام اموراً مدركة . لا ان نحول الحقائق الى اوهام .

ومع ان رهطاً من كبار الادباء تحزبوا للغموض فقد رأيناهم في ادبهم غامضين تارة ومفصحين طوراً ، كما نرى في نتاج فاليري ، او كما حدث لجاك ريفيه عندما ثار على السريالية بعد ان كان من دعاتها . واننا لو رجعنا الى ادبنا العربي ، لوجدنا ابا تمام يقول :

ولم افهم معانيها ولكن ورّت كبدي فلم اجهل شجاها

فحدد منذ الف عام الايحائية الحديثة بهذا البيت من الشعر ، وان كان قد نظمه في فتاة اعجمية ، فجاء المعنى ، على غير قصد منه ، مطابقاً لما نحن في الكلام عليه .

ولكن هناك اديباً كان نابغة كتاب جيله ، هو ابو اسحق الصابىء ، كاد يكون من العصر نفسه ، وقد تعمد التحديد فقال : « افخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه . » وكأنه عنى بذلك السريالية .

ومن المأثور عن أبي تمام انه سئل في حفل : يا ابا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟ فأجاب : وانت لِمَ لا تفهم من الشعر ما يقال ؟ » .

ولكننا ، مع كل ذلك ، نجد هذا الشاعر نفسه يوصي الشاعر البحتري ، خليفته على عرش الشعر ، بقوله . « . . . وتقاضَ المعاني ، واحذر المجهول منها ، واياك ان تشين شعرك بالالفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام . »

ولكن ذلك الشاعر لم يتبع تلك الوصية في شعره. فهل قام تلميذه البحتري باتباعها من بعده ؟

فلنستمع اذن الى البحتري يقول :

وكأني ارى المراتب والقوم	اذا ما بلغت آخرَ حسّي

ولننظر الى مايشير اليه « آخر حسّه » هذا من معنى بعيد هو من الصميم في مفاهيم العصر .

او فلنسمعه يقول ايضاً :

كلفتموني حدود منطقكم	في الشعر يلغى عن صدقه كَذِبُهْ
ولم يكن ذو القروح يلهج	بالمنطق ما نوعه وما سببهْ
والشعر لَمْحٌ تكفي اشارته	وليس بالهذْر طوّلت خُطبهْ

ولاشك ان احدث ماحُدّد به الشعر في موسوعات الغرب هو القول بأن من خصائصه مخاطبة المخيّلة لا المنطق .

وان حديث البحتري عن « اللمح » في الشعر، وتمرده على المنطق فيه، لهما دليل على المراقة في نظرية السريالية في الأدب العربي وارتدادهـا الى عشرة قرون . أقول « نظرية » السريالية، لأن البحتري نفسه، مثل الكثيرين من شعراء السريالية والرمزية، لم يستطع إبراز منهجه في الثوب الذي أراد، ولاعممه في شعره، لأن نتاجه اشتهر بروعة الوصف الواقعي. ولولا ذلك لعددناه مبدع السريالية الاول في تاريخ الآداب العالمية .

- ٥ -

أمثلة للمح في الشعر العربي

يجمل بي في هذا الموضع من البحث أن أقدم من الشعر العربي القديم بضعة نماذج لشعر الايماء ، أو للمّح البارع فيه ، لأدلل على المستوى الرفيع الذي سمق اليه الذوق الشعري منذ أربعة عشر قرناً في جاهلية العرب ، الى مابعد الاسلام ، في زمن كان العرب فيه واقعيين ماديين ، أي قبل اختلاطهم بالهنود والفرس والأغارقة وتأثرهم بالأدب الصوفي ، الذي شرد الكثيرين من الشعراء في متاهات الغموض .

شاء الشنفري أن يشير الى عظم البرد في احدى الليالي فقال :

وليلةِ نَحسٍ يصطلي القوسَ ربُّها ... وأقطُعَهُ اللاتي بها يتنبَّلُ

فأي برد هو هذا الذي حمل البدوي على إضرام أعز مالديه ، وهي قوسه وسهامه ، ليصطلي بنارها ؟

وأشار امرىء القيس إلى سرعةفرسه فقال انها « قَيْدُ الأوابد » ، أي تقيّد الوحش اذ تدركها بسرعة فتمنعها عن الجري والهرب .

وأراد الأعشى أن يلمّح الى وقت الظهيرة فجعل توسط الشمس كبد السماء ساعة « تنتعل الافراس ظلالها » .

ووصف عمر بن أبي ربيعة الحسناء الطويلة العنق بأنها « بعيدة مهوى القرط » . والنساء البضّات الارجل بأنهن « خرس الخلاخل » . وكنى أبوفراس

عن طويل القامة بـ « طول نجاد سيفه » ، كما كنى سواه عن الرجل الكريم بأنه « كثير الرماد » ، لفرط مايوقد نيران الضيافة .

ولعمر بن أبي ربيعة عن اقبال النساء على مشاهدته واعتدداه بذلك :

وكن إذا أبصرنني أو سمعنني		هرعن فرقّعن الكوى بالمحاجر

وقال اعرابي وفي قوله إيماء إلى الغرض : « أرى القمر على جدارها أجمل منه على جدران الناس » .

وأشار الشاعر الى الحر الشديد بقوله : « يغادر الوحش قد مالت هواديها » أي تميل رؤوسها الى الاسفل لتسترها في ظلها من حرارة الشمس .

ومن أرشق مانعرفه عن الايماءة البارعة ، قول المنازي ، وقد أبى أن يشبه الحصى باللؤلؤ كما يفعل سواه ، فكنى عن ذلك بهذه الصورة الرائعة :

تروع حصاهُ حاليةَ العذارى		فتلمس جانبَ العقدِ النظيمِ

الى آخر ماهنالك من أمثلة عن الرمزية الوضعية التي تنطبق على مفاهيم كلمة الرمز ، اكثر من انطباقها على مفاهيم المدرسة الرمزية الجديدة في مجمل مبادئها .

ونرى أن الرمزية الوضعية ، أو مانسميه في أدبنا العربي الكناية ، هي من أغزر أبواب الشعر افتناناً ، وامتعها أسلوباً ، متى أحكم فيها الايماء الى المعنى دون الاحاطة بتحديده ، فتجيء الاشارة اليه لمحاً لايندّ مؤداه عن الإفهام .

أما الايحائية ، فان عدم الاسراف فيها ، والتنكب بهـــا عن الغموض ، يجعلان منها أدباً رفيعاً . لان الشعر الحقيقي هو ماأوحى الينا أزمة الشاعر الروحية عند خلقه . فأين هو الشعر الحق الذي يهز الاعمـــاق ، وينبض بالجمـال ، ولا يكون إيحائياً ؟

- ٦ -

الفوضى في الأدب الحديث

ان لكل طفرة تجديدية فوضى . أما القول باصطناعها عمداً ، فهذا مالا نقره . وقد خطر لبعضنا أن يسموها « الفوضى السعيدة » فلم نجد غرابة في الأمر . أفلم يروا من قبلهم « رامبو » ، النابغة الطفل ، يقدس الفوضى حين يقول :

Je Finis Par	Trouver Sacré
Le Désordre	De Mon Esprit .

لقد سرنا خلف رامبو اذن ، وتقفينا أثر خطواته . وفاتنا أن رامبو فطر على التمرد والفوضى فكانا طبعاً فيه لا تطبُّعاً . انه فرض منطقه الصبياني على أئمة الأدب Vigier Le Cocq و René Ghil فوضع وهو في السابعة عشرة من عمره ألواناً للأحرف الصوتية ، فاندفعوا من بعده يتغنون بها . حتى حمي بينهم وطيس الخلاف على تصنيف ألوان الحروف ، فأصبح لبعضها ، بسبب ذلك ، أكثر من لون واحد !!

ان يوسف الخال ، صاحب مجلة « شعر » ورافع علم الشعر الحر مع رفقائه من أدباء الحديث في لبنان ، قد أحس بخطر تلك الفوضى فكتب الي يقول : « لقد أطلقنا الشعر من عقال الجمود والتمسك بالقديم ، فكان لهذه الحرية إقبال لم يسلم من الفوضى » .

فالفوضى اذن هي واقع الكثير من أدبنا الحديث . ومن أسبابها استعجال الشهرة وسهولة الاقبال على أنواع من القول لا يكلف أصحابها فيها الإبانة ، فالمعل

فيه هين لا خلق فيه ، يتسم بألفاظ محدودة من الكلام المزوق المختار . والانتاج موفور بسبب الاستهتار بمقاييس الوزن واللغة والفن ، والاستخفاف بأذواق الناس وأفهامهم .

وقد كان من وراء ذلك أن صدف الناس عن الشعراء وعن انتاجهم ، لالتياث معانيه عليهم ، واعتياصها على ادراكهم ، وفي ذلك مافيه من الاساءة الى الفريق الذي أهلته مواهبه الى اضرام ذاته العبقرية وقيداً للنار المقدسة .

نحن نرى في الشعر والفنون مارآه « أندريه جيد » حين قال ان الفن يعيش في القيود ويموت في الحرية .

أقول هذا مستثنياً من أدباء الحديث وشعرائه فريقاً أجادوا في ماقدموه الينا من عطاء . أما أن يخفق سواهم ويسيئوا الى النهضة ، فلأن هذا الأدب لم يزل بعد طفلاً ، وسيسقط كثيراً قبل أن يستطيع الوقوف والسير .

- ٧ -

الثقافة في الادب الحديث

لاينكر أن معظم أدباء الحديث هم متخرجون في الآداب من أشهر جامعات العالم مثل السوربون ، وكمبردج ، وهرفرد ، وبون ، والجامعتين العربيتين في القاهرة ودمشق ، والجامعة الامريكية في بيروت . فنرى أن ثقافتهم الأدبية كاملة مستوفاة . ولكن الثقافة وحدها غير كافية لخلق الأدب . فالعبرة هي في أدب الخلق .

أدب الخلق

وأدب الخلق هذا مقياس العبقريات التي تخترق كل ظلمة ، وتقشع كل ضباب ، وتهتدي في أي المتاهات . ولكنني مع اعتزازي بأن الحركة خير من الجمود ، لا أنكر اننا مازال نغترف أغراض نهضتنا من ثقافة الغربيين ، مع أن الغربيين تدرجوا مع الزمن ، وراحوا يقتربون رويداً رويداً من أساليبهم الحاضرة بناء على تجربتهم الطويلة ، واعتماداً على قابلية قرائهم ، وقد تعودوا بالتدرج انتاجاً تناهى اليهم مع الأجيال الأدبية المتعاقبة . أما قومنا ، فقد شاؤوا أن يختصروا الطريق . وشاؤوا أن يستمدوا تجربة سواهم لاتجربتهم الخاصة ، دون أن يستدرجوا بالتؤدة عقول قرائهم الهاضمة الى تقبل إنتاجهم .

تلاطم الثقافات

وبعد ، فاقيمة الثقافات كلها ، لو استوعبناها كماتستوعب الخزائن الكنوز؟ مجد الثقافات أن تتلاطم في الصدور وتزعزع الجبل الذي هو انسان ، فتصدع منه صخور قلب ، وتخضخض خزانات روح . وان خير الثقافات ما كان لقاحاللعبقريات يعطينا مواليد خالدات من النعمى ، وانا فيه لكل زعزع مطرات ، ولكل زلزال جداول تتدفق ، أو براكين تتفجر تحت قلم تضرب به يد على قمة ..

- ٨ -

كيف نفرض ادبنا الحديث

نحن والتراث

ولن يفرض أدبنا الحديث نفسه على ذهنية قومنا وعلى الأدب العالمي مالم يستخرجه أصحابه بالغوص في الأعماق على تراثنا ، والخروج الى النور بكنوزنا

المنبوءة متوهجة بخصائصها الشرقية ، مجلوة في مصاغات لها جديـــدة ، كما فعل « أنوي » بـ « أنتيغون » و « برناردشو » بـ « بيجماليون » وإليوت وأصحابه بما يقدمونه الى القارىء من شعر مفعم بالرموز التي تمت بقليل او كثير الى التراث السالف .

نحن نريد محاكاة إليوت ، ولكن قوته ليست محصورة في شكل أسلوبه فحسب . بل في جمال أدبه . ان في مخيلته وفكره وشعوره طاقة مبدعة كامنة . هو يضرب لنا الأمس باليوم ، فنرى الروحانية منهزمة أمام جبابر الآلة . ويحصر القصيدة في بيت ، أو يجمـــع دخان الازمنة المتباعدة ليحبس ماردها في قمقم الكلمة الصغير .

ان تأثر الأجيال الطالعة بالأجيال الغابرة محدود . فهناك الذات المبدعة في الشاعر والأديب ، تطبع اسلوبه بشخصيته ، دون أن يتجرد من تراث قومه مهما تأثر بأسلوب سواه .

الاستعارة في الأدب

نحن نستعير من الغرب ولا عار علينا في ذلك . فالغرب قد استعار الكثير من أدبنا وموسيقانا . ولكنه طورها حسب مزاجه ومفاهيمه . أما نحن فلا نضفي على مانستعيره من الغرب شيئاً من سماتنا الشرقية . فأي شأن سيكون اذن لأدبنا اذا فقد أظهر خصائصه ؟ واذا كان هذا الأدب اجتراراً لأدب الغرب فأية حاجة ستكون للآداب العالمية به .

- ٩ -

كلمة الختام

اني مؤمن بمستقبل الأدب الحديث في البلاد العربية . واثق انه سيهتدي الى الطريق التي تقوده الى الفوز العالمي . فهذا الفوز قد هلّت طلائعه . وعلّ فتياننا مكلفون طريقاً شقها لهم شيوخنا فتيان الأمس . فنحن نرمق أدبهم بعين الأمل وبكل ما في صدور هؤلاء الفتيان من اندفاع ورجاء . فليعمل دعاته على إخصاب نتاجهم وان فشل الكثيرون منهم . فنتاجهم سيعمل فيه غربال الزمن عمله في غد . والأدب ، منذ وجد فيه حنطة وزؤان . فلنبارك الحنطة اذن . أما الزؤان فلا نرجعنّه أبداً الى بطون حقولنا !!

وقد يحق لي ، وقد نشأت بين قوافل التجديد الاولى في ادبنا العربي المعاصر ، ان اجمل القول لاخواني عباقرة الغد بعدم التخلي عن سماتهم الشرقية في عطائهم ، وبالاخلاص للصيغة العربية والتخفيف من حدة الفوضى الضاربة في شعرهم ، وبالحد من المغالاة في مجاراة تيارات الغموض . فالعبرة ليست في التجربة بل في قيمة التجربة . واساليب الرمزية والسريالية والواقعية الحديثة وماإليها هي اوعر الاساليب ، بل هي لاشيء اذا لم يرافق شذوذها نبوغ خارق . لان المناهج لاتخلق لنا العبقريات ، بل هي العبقريات التي تخلق لنفسها المناهج .

لقد كبا الجواد بالاساليب الغامضة في الغرب ، فقدمنا لها جواداً آخر في بلاد العرب !

ولكن الجواد الأصيل ، شديد الشكيمة ، صعب المراس ، فأخشى اذا لم نحكم له اللجام أن يشرد شردته الهوجاء . وقد عودنا الجواد ان لايكف عن شروده الا متى سقط فارسه عن ظهره . .

الدراسة الثانية

مقدمة ألف ليلة وليلة

أنشأها الشاعر باللغة البورتغالية في شهر نوار سنة ١٩٦١ مصدّراً بها أقاصيص «ألف ليلة وليلة» التي ترجمها الى اللغة نفسها الأخوان سيسيليو وجورج كرنيرو

- ١ -

أين ولدت ألف ليلة وليلة

للمرة الاولى في تاريخ الآداب العالمية يقدم أديب من الشـــــرق احدى ترجمات الف ليلة وليلة . فهل اختارني لها الأخوان « كرنيرو » لأنني شاعر من لبنان ، فتح عينيه للنور في مهد الشمس ، وقرأ هذه الحكايات في لغتها الأصيلة، فانسربت الى روحه مع أضواء القمر ، وغلّت في قلبه مع عزف القصب المجرح ، وتنغيمة العود وقد « أرخت عليه الجواري نهودها » على انة الف ليلة وليلة ؟

أم هل أرادني لها المترجمان لأني شهدت في طفولتي عجائز الشرق يغزلن الأقاصيص ويحكنها حول مواقد الشتاء ، وسمعت الخادم مريم تنمق لي أخبار الجن لأنام ، ورأيت بنفسي في بعض مقاهي دمشق شيوخاً يتحلقون حول القصاص وينقسمون أحزاباً على أبطال الحكاية ، حتى إذا ظفر أحدهم، راح حزبه يهمهمون مزمجرين زمجرة النصر ، صافقين بأقدامهم الأرض على وقع قرقرة النراجيل ؟

قد يكون الأمر كذلك . ففي مثل هذه المقاهي ، وحول تلك المواقد ، وعلى ألسنة الأمهات والخدم حول أسرّة الأطفال ، وفي سمر الرواة في بلاطات دمشق وبغداد والقاهرة ، وتحميس القصّاص للمحاربة في طليعة جيوش العرب

الفاتحين ، نشأت وترعرعت هذه القصص التي امتد بعض جذورها من الهند وفارس ، فنجمت أطرافها في الجزيرة العربية وما جاورها من بلاد مكتسحة ، وأصبحت فيما بعد أدواحاً جثلة ، وارفة الظلال ، اصطنع لها العرب جذوعاً من زمرد ، وعروقاً من مرجان . ودلفوا الى عوالم البهرجة والزخرف المرصودة بالمردة والجن ، فسلخوا من فراديسها أعجب غراس ولقحوها بها ، فكانت لهم في صحرائهم المحرقة واحة تمرّوا لظلالها البليلة مدى العصور . ثم راحت تلك الظلال تمتد رويداً رويداً فتكتسح عالمنا هذا وتلفّه من قطب الى قطب كأنها الهواء المحيي .

— ٢ —

أقدم الوثائق

وثيقة المسعودي

أقدم ماذكره التاريخ عن « الف ليلة » هو فقرة وردت في كتاب مروج الذهب لأبي الحسن المسعودي ، المتوفي سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م ، فقد قال في معرض كلامه عن أخبار « ارم ذات العماد » الاسطورية :

« ان هذه أخبار موضوعة ، من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرّب من الملوك برواياتها . وان سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا ، والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، مثل كتاب (هزار أفسانه) وتفسير ذلك بالفارسية ألف خرافة ، واسم الخرافة بالفارسية (أفسانه) . والناس يسمّون هذا الكتاب (الف ليلة) وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها شهرزاد ودنيازاد » . (١٣)

وثيقة ابن النديم

وتلاه بعد ذلك من مؤرخي العرب ، أبو الفرج محمد بن اسحق المعروف بابن النديم ، المتوفي سنة ٣٨٥ هـ — ٩٩٥م ، فقال في كتابه « الفهرست » :

« أول من صنف الخرافات وجعل لها كتباً وأودعها الخزائن الفرس الأول ثم أغرق في ذلك ملوك الأشفانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس . ونقلته العرب الى اللغة العربية وتناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا في معناه مايشبهه . فأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب هزار أفسانه ومعناه ألف خرافة . وكان السبب في ذلك أن ملكا من ملوكهم كان اذا تزوج امرأة وبات معها ليلة قتلها من الغد . فتزوج بجارية من أولاد الملوك لها عقل ودراية يقال لها شهرزاد ، فلما حصلت معه بدأت تخرفه ، وتصل الحديث عند انقضاء الليل بما يحمل الملك على استبقائها ، ويسألها في الليلة الثانية عن تمام الحديث الى أن أتى عليها ألف ليلة ... رزقت في أثنائها منه ولدا أظهرته وأوقفت الملك على حيلتها عليه ، فاستعقلها ، ومال اليها واستبقاها . وكان للملك قهرمانة يقال لها دنيازاد ، فكانت موافقة لها على ذلك . وقد قيل ان هذا الكتاب ألف لحمّانة ابنة بهمن . » *

(*) حما أوحميا أوحماني أوجانة أوخاني ، على اختلاف الروايات ، هي بنت الملك بهمن بن سفنديار (١١) ، وقد حاول المستشرق الهولندي (ده غوج) أن يقرب بين موضوعها وموضوع كتاب أستير في التوراة استنادا الى رواية الطبري (١٦٨٨) من أن أم بهمن هذا كانت تدعى أستير (١) .

وأورد ابن النديم في مكان آخر من كتابه مايأتي :

« والصحيح إن شاء الله ان أول من سمر بالليل الاسكندر . وكان له قوم يضحكونه ويخرفونه لايريد بذلك اللذة ، وانما كان يريد الحفظ والحرس . واستعمل لذلك بعده الملوك (هزار أفسانه) ويحتوي على ألف ليلة ، وعلى دون الالف سمر ، لأن السمر ربما حدث في عدة ليـــال . وقد رأيته بتمامه دفعات . وهو بالحقيقة كتاب غث بارد الحديث (١١) . » اﻫ . كلام ابن النديم .

وثيقة القرطي

وهناك مصدر ثالث مفقود. ولكن المقريزي، المتوفى سنة ١٤٤١ م والمقّري ، المتوفى سنة ١٦٣١م، اشارا اليه في كتابيهما الخطط ونفح الطيب، ونسباه الى مؤرخ مصري مجهول يدعى القرطي ، عاش في عهد الخليفة العاضد الفاطمي (١١٤٨— ١١٧١) م . (٣)

ولما كان من سبقه من المؤرخين لم يذكروا الكتاب الا باسم «الف ليلة» فهو أول من سماه « الف ليلة وليلة » وقابل بين قصصه وبين الحكايات المشهورة التي كان يتداولها الناس في عصره . أما زيادة « ليلة » على « الألف ليلة » فقد عزاها (جيلد يمائيستر) - ونقل ذلك بعضهم عنه — الى ان العرب كانوا يتشاءمون بالعدد الشفع فآثروا تلك الزيادة . فأنكر الباحثون عليه ذلك لأنه لم يشر الى المصدر الذي استقى منه هذا القول . ورأى البعض ان الأدباء أقروا هذه التسمية لأنها ألطف ايقاعاً (١) . والأصح أن زيادة الواحد بعد المائة أو بعد الألف هي اسلوب شائع عندنا في اللغتين العامية والفصحى .

- ٣ -

هل الكتاب القديم هو نفسه كتاب اليوم ؟

نرى مما تقدم أن هذه الحكايات عرفت ككتاب في النصف الأول من القرن العاشر . أي منذ ألف سنة فهل كانت هي نفسها حكايات الكتاب الذي نعرفه اليوم ؟

كلا . فالكتاب الذي تداوله المترجون والقراء في الشرق والغرب خلال العصور الأخيرة يختلف في معظمه عن المؤلف الذي ذكره المؤرخون . وهو غير الكتاب الذي قال عنه ابن النديم انه « رآه بتمامه دفعات » وزاد على ذلك انه « بالحقيقة غثّ بارد الحديث ... » اذ لا يعقل أن يكون ذلك ويكون هذا شأنه الا اذا كان ابن النديم فاسد الذوق ، فاشل المقاييس . ولا هو الكتاب الذي تناوله الفصحاء والبلغاء فهذبوه ونمقوه ، لأن لغته هي أبعد ما تكون عن التهذيب والتنميق . بل هي في اكثرها تكاد تكون عامية وقد كتبت في عصور متأخرة كانت فيها اللغة العربية في ادنى دركات الانحطاط ... أما أن يكون العرب « قد صنفوا في معنى الكتاب ما يشبهه » ، فهذا صحيح .

عندما ترجم العرب هذا الكتاب عن الفارسية في القرن العاشر للميلاد كان مقتصراً على ثلاث عشر قصة * أولها حكاية « الملك شهريار وأخوه الملك

(*) القصص الثلاث عشر هي : حكاية الملك شهريار وأخيه الملك شاه زمان ، وحكاية التاجر مع العفريت ، والحمال مع البنات ، والتفاحات الثلاث والعبد ريحان ، والوزير نور الدين ، والخياط والأحدب واليهودي والمباشر والنصراني فيما وقع بينهم ، وحكاية الوزيرين التي فيها ذكر أنيس الجليس ، والتاجر ايوب وابنه غانم وابنته فتنة ، وعلي بن بكار مع شمس النهار ، وقمر الزمان بن الملك شهرمان ، والفرس الابنوس ، وزواج الملك بدرباسم بنت الملك السمندل(٦) ،

شاهزمان ،وهي المدخل الى قصص الكتاب التي ترويها شهرزاد ، او هي اطارها .
والذي يثبت لنا ذلك على الرغم من ضياع الكتاب القديم هو أساليب هذه الحكايات الثلاث عشرة ، ووجود مقابل لبعضها في اللغات الشرقية القديمة وخاصة الهندية (١) أو ورودها بعينها في مختلف المخطوطات المعروفة (٦) ، مع أن سائر الحكايات هي على نقيض ذلك وكثيراً ما لا نجده في سواها ، او نجد في نفس القصة تباينا في السرد بين مخطوطة وأختها (١) ، ولما أدخله عليها القصاص والنساخ من الوساعة والزخرف ، والحذف والتعديل ، الى آخر ما هنالك من زيادات فولكلورية كيّفها العرب حسب دينهم وعاداتهم ونفسيتهم وأضافوا اليها ما ابتدعته قرائحهم واستنبطته مخيلاتهم على مدار العصور من النكات والحكايات العجيبة .

— ٤ —

عناصر الكتاب الحديث

النواة الهندية — الفارسية

فنواة الكتاب واطاره إذن قصص هندية اقتبسها الفرس عن الهنود وهي تعرف من اسلوبها وقد ترجمها العرب عن الفارسية (البهلويّة) وأضافوا اليها طبقتين من الحكايات البغدادية والمصرية .

والأسلوب الهندي معروف باستيلاد القصة من القصة كأن يقول أحدهم: لاتفعل كذا كيلا يصيبك ما أصاب فلانـاً . فيجيب الآخر وكيف ذلك ؟ (بالسنسكريتيّة: كاثام أتات ؟) استدراجا الى قصة جديدة ، كما هو مألوف في أشهر

الكتب الهندية القديمة كالمهراته ، وبنجه تنتره ، وكليلة ودمنه ، و كتاب الوزراء السبعة الخ ... ونجد في أحدها أن امرأة شاءت مغادرة منزلها لملاقاة عشيقها في أثناء غياب زوجها،فاستوقفتها ببغاء دات فطنة ودراية ، وراحت تروي لها حكايات تمدها في كل ليلة باتمامها في الليلة التالية اذا لم تغادر المنزل ، الى أن عاد زوجها من سفره (١) .

وأثر الطابع الهندي قديم في فارس . أما في العراق فيكفي أن تكون المخطوطات التي اكتشفها الأثريون الاميركيون في حفريات قصر اشنونا ، عاصمة السيلاميين قد دلت على ان التأثير الهندي فيها يعود الى القرن الواحد والعشرين قبل المسيح (٩) .

وفي ألف ليلة دلائل كثيرة تشير الى الأثر الهندي في نواتها ولكن العرب قلبوا ما اقتبسوه رأساً على عقب وغيروا كثيرا فيه فكاد يشكل أمره على الباحثين .

أما أن يكون أصل الف ليلة وليلة هندي ، كما كان يقول فون شليجيل(٢) المستشرق الاخصائي في اللغة السنسكريتية ، فذلك رأي قد اهمله علماء اليوم .

الحكايات البغدادية

أما الحكايات البغدادية فقد صنفت في مصر مابين القرنين الحادي عشر والثاني عشر . بيد أن منها مانشره ادباء بغداد قبل ذلك التاريخ وطواه الزمن(١١) ونعتقد انه « هو الغث البارد الحديث » الذي ذكره ابن النديم ، لأن هذا المؤرخ قد عد منه في كتابه الفهرست عشرات الحكايات التي لم يبق لها اثر . أما ما اتصل بنا من هذه الطبقة ، فقد جاء معظمه حافلا بمكارم ذلك العصر وما تحلى به أهله من خيل وعزة وكرم، اذ ان الذين دونوه في العصور الأخيرة في مصر نقلوا عن الرواة

والمؤرخين مادكروه عن عصور بغـداد الزاهرة من اقاصيص مشرقة بالفضائل العربية وأثبتوه فيه .

الحكايات المصرية

والحكايات المصرية تشكل القسم الأوفى من الكتاب . ولئن كانت أوفره انطباقاً على الواقع ، فهي اضعفه أداة بيان . وقد ألفت في الحقبة التي تمتد من القرن الثاني عشر الى القرن السابع عشر ، ودونت في النصف الأول من القرن السادس عشر ، عدا ما اضيف اليها في القرن الثامن عشر واقره « زوتمبرغ » كما سيجيء ، فجاءت منطوية على ما اعتور عهدي المماليك والترك من فساد واستبداد ، وغلب عليها قصص الاحتيال والشموزة والجهل ، الى آخر مايماشي عصور الانحطاط من تسفل في الخلق ، وتبذّل في المجون ، وفحش في الحوار . ومتى أضفنا الى ذلك ما فيها من غثاثة في التعبير ، علمنا لماذا احتقرها العرب وأغفلوا شأنها في أدبهم .

انبعاث

ونشط المستشرقون فترجموا ألف ليلة وليلة الى لغات العالم ، وخلعوا عليها ماحسن من الحلل البيانية الرائعة ، وهكذا انبثق من عصور الانحطاط اشهر مؤلف صنف بلغة العرب . وان لمن اظهر مايشهد لهذا الكتاب بالعبقرية ، هو تغفية براعة مخترعيه على مايتماور انشاء مدونيه من الاسلوب الردىء .

- ٥ -

من صنف حكايات ألف ليلة وليلة

أفرد أم جماعة

كان للمستشرقين آراء متضاربة في كيفية خلق كتاب « ألف ليلة وليلة » وتقرير زمن تصنيفه . فقال المستشرق الفرنسي سيلفستردو ساسي ، في عام ١٨١٧، بأنه تأليف جماعة لا تأليف فرد (١) . وهذا أمر لاشك فيه . بيد أنه عزا تأليفه بأجمعه الى العرب نافياً كل ما أثبته التنقيب عن حقيقة اطاره الهندي — الفارسي، منكراً على المسعودي صحة ماروا منذ ألف سنة . فخالف بذلك الحقائق التاريخية المسلّم بها ، وأثار عليه ثائرة زملائه العلماء . فانبرى لتخطئته المستشرق النمسوي « هامر بورغستال » ودافع عام ١٨١٩ عن رواية المسعودي مثبتاً بالتدقيق الوافي أن لا غبار على صحة ماجاء فيها (١) .

وحاول العلامة البريطاني « وليم لاين » أن يثبت أن مؤلف الكتاب فرد لا جماعة ، وان الكتاب صنّف بين عامي ١٤٧٥ و ١٥٢٥ وذلك في مقدمته لكتاب « الليالي العربية » الذي ترجم فيه بعض حكايات ألف ليلة وليلة وطبعه في لندن بين عامي ١٨٣٩ و ١٨٤١ (١) .

ونرى أن هـــذا المستشرق خلط بين زمن خلق الحكايات ، وبين زمن تدوينها . والحقيقة أن خلقها كان ، على خلاف مايزعم ، من عمل جماعة توسعوا مدى ستة قرون في زخرفة روايتها بالتواتر . أما تدوينها ، فقد أصاب في نسبته الى العهد الذي أشار اليه .

تحديد زمن التدوين

وقد وجدنا في دراسة للكاتب المصري المعاصر الأستاذ أحمد حسن الزيات، تحديداً أدق لزمن التدوين ، حصره في فترة عشر سنوات ، بين عامي ١٥١٧ و ١٥٢٦ ، لأن أقدم مخطوطة معروفة هي التي نقلها رجل الى الشام من طرابلس وكتب عليها تاريخ امتلاكها عام ٩٤٣ هـ ، الموافق لعام ١٦٣٦ م . فاذا افترضنا أنها دونت قبل هذا التاريخ بعشر سنوات ، أي عام ١٥٢٦ ،وهو الزمن الأقرب ، فيستحيل في الزمن الأبعد أن تكون دوّنت قبل عام ١٥١٧ ، لأن فيها ذكر القهوة، والباب العالي ، وبعض النظم العثمانية . وتركيا لم تستول على مصر قبل تلك السنة، ولا القهوة انتشرت في الشرق قبل ذلك التاريخ .

ولكن نسخة طرابلس (١٥٣٦) ناقصة . وهي ليست النسخة المعروفة اليوم،وان يكن قد اعتمدها غالان في ترجمته الفرنسية المشهورة (١٧٠٤-١٧١٧) المعدودة أول ترجمة للكتاب كما سيجيء .

الشيخ المجهول

وحين كان «سيتزن» في القاهرة أورد في يومياته، بتاريخ حزيران ١٨٠٧ فقرة عما اكتشفه « أسلين » من أن مخطوطات ألف ليلة وليلة التي كانت متداولة عهدئذ في مصر ، جمعها شيخ مسلم مات قبل ذلك التاريخ بست وعشرين سنة . ولأن الأصل لم يكن يجاوز المائتي ليلة ، فأضاف اليها ذلك الشيخ قصصا مختلفة كانت معروفة قبل ذلك ، وجعل من الجميع مؤلفا واحدا صار مع بعض مخطوطات سواه أساسا للنسخة التي أقرها « زوتمبرغ » بعد تحقيقها وطبعت

عام ١٨٣٥ ، فعرفت بطبعة بولاق الأولى . وهي الطبعة التي اعتمدها «ماردروس» ترجمته الفرنسية مع بعض الاضافات المستقاة من مخطوطات مختلفة .

ومن المؤسف حقا أن يكون « سيتزن » قد أهمل في يومياته اسم الشيخ الذي قام بهذه الاضافات الخطيرة في هذه المخطوطة ، فكأنما كتب على ألف ليلة وليلة ألا يعرف اسم واحد لرجل عمل على خلقها أو تدوينها . حتى أن التاريخ لم يذكر اسم مترجم الحكايات الهندية ـ الفارسية التي كانت أساس الكتاب واطاره ، مع أنه لم يغفل ذكر من ألفت له ، أي حميا ابنة بهمن . كما ان مؤرخي الغرب المتأخرين لم يحفلوا بتدوين اسم الشيخ الذي عاصرهم ، كما ذكرنا أعلاه ،على رغم ماعرفوا به في أبحاثهم من المغالاة في التفصيل .

على ضوء التاريخ

ولو رحنا نتقصى الأزمنة التي عملت في تكوين ألف ليلة وليلة ، ونأتي على تفصيل ذلك بدلالة ماجاء في الحكايات نفسها ، لتقاضانا البحث مالا طاقة لهذه الدراسة به ، ولضاق المجال عما سنخلص اليه فيما بعد من أبحاث ، فنكتفي بالاشارة الى ماسبق ذكره من مخطوطات ألف ليلة وليلة المكتوبة في زمن المسعودي وابن النديم منذ ألف عام ، وفي عهد الفاطميين وقد أتى على وصفها القرطي في القرن الثاني عشر ، ملمحين الى ان قصة الحمال مثلا ، هي مما أنتج بعد القرطبي لأن الامير يروي في بداءتها أن جانبا من ثقافته يعود الى اعتناقه الشاطبية ، وواضع الشاطبية مات سنة ٥٩٠ هـ ــ ١١٩٤ م . كما ان في حكاية « نور الدين وشمس الدين » مايدل على انها أنشئت بعد حكم الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧ م) أو بعد عام ١٣٠٦ كما جاء في بحث لوليم بوبر نشره سنة

١٩٣٦ ، وحكاية الخياط والأحدب ، بعد سنة ١٤١٦ م . وحكاية الحمال المتسلسلة بعد أن غزا هولاكو مدينة بغداد عام ١٢٥٨ م وفي قصة التاجر النصراني ذكر خان الجولي ، والجولي هذا مات سنة ١٣٤٤--١٣٤٥ م .

على هذا الضوء درس فريق من العلماء والمستشرقين تاريخ بعض الحكايات واستدلوا منها على العهد الذي انبثقت فيه . أما حكايات السندباد البحري * وحكاية الملك جليعاد فهي مما أنشىء قبل القرن العاشر .

ونرى في حكاية التاجر مع العفريت أن ثلاثة من المسافرين ينقذون حياة التاجر بما يروونه من الأقاصيص ، وهذه الحكاية قديمة رواها المفضل بن سلمة** المتوفى نحو سنة ٨٦٤ م في كتابة الفاخر في ما تلحن به العامه . وان اسلوب حكاية المفضل البدوي الصحراوي الصرف ، وقدم العصر الذي عاش فيه ، لم يجعلنا نشك في أن اصلها فارسي كما سبق وذكرنا في فصل سابق استناداً الى رأي بعض الباحثين .

(*) حكايات السندباد من أشهر قصص ألف ليلة وليلة وهي أول ماترجم منها الى اللغات الغربية بقلم غالان (١٧٠١) ، قوامها سبع رحلات في مياه الهند والصين في عهد ازدهار بغداد والبصرة ، زخرفها الرواة بغرائب التخيلات والمبالغات كما فعل بزرك بن شهريار في كتابه عجائب الهند الذي كتبه بالعربية في القرن العاشر (٨) وفي اللغتين المصرية واليونانية قصص قديمة مشابهة لها (٩) . ولو جردت حكايات السندباد من المبالغات غير المعقولة لجاءت في تفاصيلها مطابقة لما ذكره الرحالون في الموضوع كوصف جزر المهراجا ، والبحث عن الماس بواسطة النسور في سيلان ، وما ذكر عن الفيل والكركدن وشجر الكافور وتجارة القرنفل الخ ... (١١) وعن عادات الهند من دفن الزوجة حية مع زوجها عندما يموت .

(**) لغوي ، عالم بالادب عاش في اواسط القرن التاسع للميلاد ، وكان من خاصة الفتح ابن خاقان وزير المتوكل .

والذي استنتجه « د. ب. ماكدونالد » من دراساته ، كما يقول في ملحق الموسوعة الاسلامية (موسوعة الاسلام) ، انوصف العادات الشعبية(الفلكلور)ء في الحكايات ليس دليلا قاطعاً على وجوب نسبتها الى أحد البلاد او أحد الشعوب ، وان هذا المنطق قد يسوقنا الى الاعتقاد بوجود أصول صينية او زنجية لالف ليلة وليلة ، لان بعض ما جاء في حكاية علي بابا مثل (شولم ، شولم ، انفتحي) نجد مثيلا له في حكايات يتداولها الناس في جنوب افريقيا . كما ان الحكايات المستقلة التي ضمها زوتمبرغ الى نسخته (نسخه بولاق) ، وبينهـــا القصص الفارسية والبغدادية ، لا يثبت لناوجود روايات أصلها فارسي أو بغدادي ، فان عمل زوتمبرغ كان مقتصراً على اضافة تلك الحكايات المستقلة الى كتاب الف ليلة وليلة متوخياً من وراء ذلك جمعها فحسب .

عبقرية الكاتب

ثم عكف مكدونالد على التحدث عن الخلق الأدبي الموسوم بعبقرية الكاتب ، والمتجلي في طبقة الكتاب المصرية فقال :

« من هو ذلك الكاتب المصري الفنان ، او الكتّاب المصريون الذين خلقوا لنا شخصية معروف ، وجودر ، وأبو كير ؟ ومن خلق حكايات الأحدب ومن اية مخيلة انبثقت صورة المزين ؟ بل ما هي الاحداث التي تمخضت بمجالس بغداد ، وبحلقة احاديثه ؟ واي فكر ابتدع علاء الدين العربي ؟ ان في خلق كل هؤلاء ، وابداع كل هذا ، حقيقة رائعة وواقعاً بشريا يشرقان بالروعة الآخاذة ويجعلان القراء الغربيين مدهوشين ازاء التناقض القائم بينها وبـــين ما يسالجه

الهنود والفرس من اوهام مختلفة . ان هذه الحكايات تسمو الى مستوى القصص الواردة في التوراة في عهدها العبراني القديم . فأي الاحـداث عاشها اولئك المصنفون حتى كتبوا ما « كتبوه » لأننا لا نجد لنتاجهم مثيلا في الآداب الشرقية؟ هو مشكل أدبي صرف ما يزال قيد التحليل وقد عالجه كاتب هذه السطور في احد مباحثه بعنوان (حكاية) . ونرى من الواجب لا كمال دراسة ذلك ، الأخذ بما في « الفهرست » من دلائل كثيرة متعلقة « بالتاريخ الأدبي » ، والعمل على طبع كامل المخطوطة القديمة التي وجدها (هـ = . ريتر) في القسطنطينية ، ولئن كانت هذه لا تمثل لنا حكايات الف ليلة وليلة بنفسها ، فانها تنكفيء بنـا الى المنابع التي انبجست منها تلك الحكايات » ا هـ .

ومخطوطة « ريتر » هذه ليست من الكتب التي سلخت من حكايات الف ليلة وليلة ، بل بعكس ذلك،تحتوي خمس حكايات نراها مدرجة في نسخة زوتمبرغ (طبعة بولاق الاولى) . وتاريخ المخطوطة المذكورة يعود الى القرن الثالث عشر أو الرابع عشـر وهي حتى صدور ملحق موسوعة الاسـلام لن تكن قد طبعت بعد (٢) .

قبرية البصرة

ولا يسعنا قبل اختتام هذا الفصل الا التنويه بما جرى مؤخراً للكاتب جورج كارنيرو ، أحد صاحبي الترجمة البورتغاليـة ، حينما كان سنة ١٩٥٣ في مصر ، فقد نشر في جريدة « غازيتا » الكبرى التي تصدر في مدينة سان باولو ـ البرازيل ، أنه التقى في القاهرة عالماً أثرياً يدعى يوسف بن غصن ، حدثه عن عثوره في أحدمدافن البصرة على قبريّة قديمة العهد كتب عليها ماتأتي ترجمته :

« في ذمة الله الرحمن الرحيم

ابنتي شمس النهار

شمس أيامي وقمر لياليّ

الحب قتلك وأنا أحييتك

في حكايتك التي رويتها لأبناء البحار

بركات الله عليك وعلى أبيك

سلام بن عصفور »

ويروى لنا الصديق كارنيرو أن ابن غصن أفاده أن هذا الاكتشاف قاده الى الاعتقاد بأن مؤلف الف ليلة وليلة هو هذا الوالد الثاكل ، وان ابحاثه دلّت على أن الرجل عاش في سنة الألف للميلاد ، وانه بحّار من أبنـاء البصرة ، وانه السندباد نفسه وقد عاش رحلاته ثم زخرفها تحت تأثير الحشيش ورواها للبحّارة من مختلف البلدان والشعوب ودونوها في مصر وفارس وتركستان وكان هـــذا داعياً لاختلاف الأساليب في تدوينها ، وان ذلك الرجل لم يشـأ ذكر اسمه لأنه تحامل في حكاياته على جميع الأديان ، خلا دين الاسلام ، فخشي من تعريض نفسه للتهلكة بسبب ذلك ، كما أنه خاف أن يثير فتنة دينيـــة بين المسلمين والنصارى واليهود ... وزاد ابن غصن على قوله هذا ان لديه مباحث مستفيضة عن الموضوع ووثائق قاطعة وافية سينشرها فور الفراغ من اعدادها .

أما نحن فلا رأي لنا في مقالة الأديب المصري المذكور الا ان الفتنة الدينية التي خشي منها المؤلف المزعوم هي فتنة تثلو اذا ذكر اسم المؤلف أو لم يذكر ، وان العصبية الدينية التي خشي منها ابن القرن العاشر لم تبلغ فورتهـا

ولا الحد الخطر الذي نجده لها في الحكايات الا بعد الحروب الصليبية (١١٩٥ – ١٢٧٠) . ويا حبذا لو نشر الأديب المصري دراساته تلك ليستطيع المحققون ابداء رأيهم فيها على ضوء منطق الحوادث وفلسفة التاريخ . فالموضوع خطير . وطالما انتدبت له جامعات الغرب وحكوماته افرادا وبعثات بثتهم في انحاء الشرق يجوبون اقطاره منقبين فيها عن مخطوطات الف ليلة وليلة ، فأنشأوا في ذلك الأبحاث المستفيضة ، وتناقشوا فيها ومحصوها ، كما قلنا ، ولكن الذي نخشاه ان يقوم من يدس في التاريخ ماهو ليس منه ، على نحو ماذكره العلامة الريحاني في كتابه « قلب العراق » ، من ان احد الانكليز حمل الى بلاده من بغداد رسوما لقبر « الست زبيدة » ، وراح يتاجر ببيعها في لندن ، مدعيا انه ضريح السيدة التي صنفت كتاب الف ليلة وليلة ...

– ٦ –

عيوب الكتاب وحسناته

في هذا الكتاب هنات كثيرة . فطالما خبط به مؤلفو التاريخ بمغالطاتهم فخلطوا في رواياتهم وعمهوا من حكاياتهم في عيوب ومتناقضات ، ومن رواياتهم في مخالفات للمنطق والواقع، ومن سردهم في رتابة وترداد هما في أدبنا وموسيقانا العربيّين داؤهما المزمن . هذا خلا مافي قصصهم من إسراف في المجون ، وإيغال في التعصب الديني ، وغلو يقلب المآسي الى مهازل ، وإغراق في اللجوء الى غير المعقول من غرائب الصدف . الى آخر مايندرج في أشباه ذلك .

مغالطات تاريخية

وماذا يضير ألف ليلة وليلة ، ان يجعل مؤلفوها النابغة الذبياني في مجلس عبد الملك بن مروان ، مع ان بين موت الأول وولادة الثاني ستاً وثلاثين سنة ؟ أو أن يقحموا جميلاً بن معمر مجلس هرون الرشيد ، وقد ولد الرشيد لسبع وستين سنة خلت بعد وفاة شاعر عذرة ؟ أو أن ينصبوا من عمر بن النعمان ملكاً لدمشق ، وينسوا في سياق القصة ماقالوه ، فيجعلوه ملكاً لبغداد ، ثم يقروا ملكه قبل خلافة عبد الملك بن مروان ، مع ان بغداد لم تؤسس الا بعد مرور تسع وخمسين سنة على موت هذا الخليفة ؟

ألم يجعل شكسبير لمملكة بوهيميا شاطئاً بحرياً ، وهي البلاد الداخلية التي لم تتصل ممتلكاتها قط بالبحر ؟ ألم يُنطق هو نفسه هكطور الالياذة باسم ارسطو طاليس مع أن هذا الفيلسوف قدعاش بعد هكطور بسبعمائة سنة ؟ ثم ألم يُطلقْ على إحدى تلال روما اسم Lupercais ، مع أن هذا الاسم كان يطلقه اهلها على احد الأعياد الرومانية ؟؟(٢١) .

التحرق والاغماء

بل ماذا يضيرها أن يبالغ مؤلفو الحكايات في الشوق والتحرق والاغماء الذي يشمل في بعض الاحايين اسرة بكاملها ؟ ألم تجتمع قوت القلوب بغانم بن أيوب لتخرّ هي وتخرّ معها امّه واخته مغشياً عليهن جميعاً ؟ وفي قصة علي بن بكار وشمس النهار ، ألم يقض الشقيقان اجتماعهما الأول في البكاء والاغماء ، ثم افترقا ، فباتا متى ينشد لأحدهما بيتان من الشعر يغمى عليه ، وبات كل من اجتمع بأحدهما يبكي لبكائه ، حتى أن أبا الحسن كان يظن اذا ناح بن بكار أن روحه تخرج من جسده ؟..

والقضاة الاربعة الذين انقذوا زين المواصف من القاضاة لأن كلا منهم تعشّقها وتدلّه بحبها فنجت بنفسها ، دون ان تنيل احدهم حاجة منها ، أما ترى كيف يشهق كلٌ منهم بدوره ويموت حين يبلغه هربها ، الى أن يأتي الموت عليهم جميعاً ؟ لقد اولع قصّاصو العرب بالبكاء والاغماء ، وقصص عشاقهم حافلة بذلك ، حتى أن القائد الاكبر ، أو على زعمهم (امير المؤمنين) موسى بن نصير ، وهو المحارب الغليظ الكبد، الذي لم يتورع كما قيل عن ضرب قائد جنده طارق(*) بالسوط ، نراه في « ألف ليلة وليلة » ذا قلب أرق من قلوب العذارى ، فما أن يرى قبوراً قديمة ، او يسمع ابياتاً من الشعر ، او يستوعب عبرا كتبت على لوح قديم ، حتى تجري دموعه على خده ، ثم يغشى عليه .

الاغراب في المصادفة ومخالفة الواقع

بل ماذا يضير « الف ليلة وليلة » ان نرى ابطال الحكاية في قصر قمر الزمان ، يجتمعون في المشهد الأخير في مكان واحد ، بعد ان تفرقوا طيلة عشرات السنين كلا في قطر من اقطار الأرض ، فيظل مؤلف القصة يثير الغبار ويسد به الأقطار ، الى ان يلتقي في ساعة واحدة جيش الملك ، وجيش ابنه ، وجيش حفيديه ، وجيش حمي الابن ، وجيش عشيقة الحفيد ... ليعيشوا كلهم بعد ذلك مجتمعين حتى يجيئهم هازم اللذات ومفرق الجماعات ...

وماذا يضيرها ان يفصل القصّاص الرؤوس عن أجسادها كلما راقهم ذلك

(*) هو القائد البربري طارق بن زياد الذي دعي جبل طارق باسمه وكان موسى بن نصير قد اوفده في حملة لافتتاح الأندلس ، فافتتحها ، ويروي المؤرخون انه عاقبه بعد ذلك لأنه أسرف في الايغال فيها بعد أن نهاه عن ذلك فلم ينصع الى امره .

حتى اذا كان الرأس رأس بطل من أبطال الحكاية ، وقفت يد السياف عن « رمي الرقبة » لأسباب لايتورعون عن خلقها ، الى ان ضاقت الحيلة مرة بهم فجعلوا جواد السياف يجفل هارباً فيمتنع السياف عن قطع الرأس ، ويمضي راكضاً وراء جواده . ولما أعوزتهم الحيلة مرة ثانية هيأوا ليد السياف عقرباً لدغته ، فسلمت الرقبة !!

وماذا يضير « الف ليلة » أن يرد مصنفوها أولئك الصعاليك الذين تبدأ بهم حكاياتهم الى أصلاب الملوك ... او ان يبقوا الملوك دون أبناء حتى يشيخوا ، ثم تجترح الأعجوبة بالوسائل ، فيولد الطفل وريث التاج ، كما في قصة سيف الملوك الذي بلغ والده المائة والثمانين من عمره السعيد عندما ولد له ابن بوصفة من سليمان بن داود ؟..

وماذا يضيرها ان نرى فيها على ضوء القمر طيوراً تمرح ، وبلغاتها تصدح ؟ أو ان تجيء شهرزاد بسمر ليلة بكاملها في كلمات ست تقول فيها : « فلما سمع بلوقيا هذا الكلام تعجب » ... ثم يدرك شهرزاد الصباح ، فتسكت عن الكلام المباح ؟..

أخبار الدعارة والمجون

أو ماذا يضيرها أخبار الدعارة ، والمجون ، وتسمية الأشياء بأسمائها ، مازالت الف ليلة وليلة لم تكتب لفتيات الأديرة (٧) حسبما ذكر كاريجو ؟ كما ان تسمية الأشياء بأسمائها ووصف الواقع الطبيعي هو ، على رأي ماردروس : « من شأن شعوب البداوة التي تحيا حياة الفطرة ، لايشوب أعراقها أو أرواحها شائبة فيولد أبناؤها تحت فيض من بسمات الجمال .. فالأدب العربي يجهل تمام الجهل ذلك

الانتاج البغيض ، انتاج الشيخوخة الروحية ، انتاج النوايا المخططة المرسومة .
والعربي يستفويه كل مامن شأنه الاغراء ، وهو لايقوده الى الابتهاج والمرح الا عامل التصابي والمجون فيضحك من اعماق قلبه ، كما يضحك الطفل ، لكل مايشمئز منه التعففون ويمدونه فضيحة الفضائح » (٧)

التعصب الديني

وهل يضير الليالي مافيها من التعصب الديني المقيت ، والتعصب لايكون وليد الجانب الواحد ، بل ثمرة البيئة والعصر ، وطالما أذكى أواره الغربيون يوم أشرعوه في الحملات الصليبية على رؤوس الحراب ونشروه على شطآن الشرق العربي ، وفي قلب البلاد الاسلامية . او مانرى سيماءه في كل ماوصل الينا من آثار الغرب في القرون الوسطى ، حتى في نفس اللوزيادا ، ملحمة كاموينس شاعر البورتغال الخالد ؟

الترداد والرتابة والشعر المصنوع

أوهل يضير « الف ليلة وليلة » مايبدو فيها احياناً من الهزال في التقنية ، والرتابة المملة ، والترداد الكلاسيكي الذي قال فيه منذ أربعة عشر قرنا زهير بن أبي سلمى :

ما أرانا نقول الا مُعاداً أو مُعاراً من قولنامكرورا

أجل ، هل يضيرها ذلك ، وشهرزاد مازالت تبرز لنا بجمالها الرائع ، كل ليلة ، من وراء المعاد المكرور ، والى جانبها أختها الفتانة دنيازاد ، لتكمل لنا من أقاصيصها المجيبة ماحرمتنا من اتمامه في الليلة الفائتة ؟

أو ماذا يضير الليالي غثاثة شعرها المصنوع ، مادام كل اسم من أسماء حسانها قصيدة من الشعر ؟

عيوب وفضائل

وهل يضير الف ليلة وليلة مافيها من مكايد ، وأجرام ، وأحقاد ، ولصوصية ، وشعوذة ، وغباوة ، وجهل ، مادمنا نرى الى جانب ذلك أخبار العلوم ، والحكمة والأمثال ، والعادات الشعبية (الفولكلور) على اختلاف عصورها وأقاليمها ، وكل مافي التاريخ العربي من فضائل الشمم ، والاتضاع الديمقراطي ، والانصاف ، والقناعة ، والصبر ، والضيافة ، وحفظ الجوار ، وصون العهد ، والكرم ؟ وسترى كيف بلغ الكرم بمعن بن زائدة أن يرمي أعداءه بنصال من ذهب ، ليجود بالذهب على من يُيتّم من أبناء قتلاه !

المغالاة

أوهل يضير هذه الحكايات مافيها من مغالاة ، والمغالاة داء في الشعوب القديمة ، لم يسلم منها الاغريق الذين فاقوا العرب في ذلك ؟ (٨)

ذكر المؤرخون أنه كان ببغداد عشرة آلاف حمام عمومي ، وثلاثون الف مسجد ... مع ان المعابد الكبيرة في نيويورك ، من مسيحية واسرائيلية ، مائة وخمسون معبداً ... ولو ضممنا اليها المعابد الصغيرة لما جاوزت كلها الثلاثمائة . (٩)

وذكر المؤرخ ياقوت ان الملك شداد بن عاد أمر عماله ان يستخرجوا جميع ما في أرض المملكة من ذهب وفضة وياقوت وزبرجد ، ومن البحار ما فيها من الجواهر ، فيجمعون منها أمثال الجبال . وأمرهم بالذهب فضرب أمثال اللبن

ثم بنيت به إرم ذات العماد ، طولها اثنا عشر فرسخاً ، وعرضها مثل ذلك ، بنى فيها ثلاثمائة قصر مفصّصة حيطانها بالجواهر والحجارة الكريمة ، علوّ كلّ منها ثلاثمائة ذراع ، والسور بعلوها ، مفضضاً خارجـــه وداخله بانواع اليواقيت . وأجرى تحتها واديا بنهر وسواق على حافتي كل منها بالذهب الأحمر ، وجعل حصاها أنواع الجوهر بالوانـــه ، ونصب على حافتي النهر والسواقي أشجاراً من الذهب مثمرة ، وجعل ثمرها من تلك اليواقيت والجواهر ، وبنى على مدار السور من خارجه ثلاثمائة الف منظرة بلبن الذهب لينزلها جنوده ، وصرف في بنائها خمسمائة عام ... الى ما هو في شبه ذلك !..

ومن مبالغات مؤرخي العرب التي ذكرها وعلق عليها غوستاف لوبون في مؤلفه « حضارة العرب » انه كان يوقد في مسجـد عمرو بن العاص في كل ليلة ١٨٠٠٠ مصباح ، فيستنفد لذلك الغرض ١١٠٠٠ قنطار من الزيت ، ولا يعقل حسب قوله أن يستنفد كل مصباح ٧١ كيلو غراما من الزيت في كل ليلة ..

فهل بعد هذه الأمثلة مما يقصه المؤرخون نعتب القصاصين لما يوردونه في في حكاياتهم من اسراف في المغالاة ؟

إن امين الريحاني ، الكاتب اللبناني المعاصر ، أجاد في تعليل ذلك حين قال : « العربي يرى ولا يعد . وهو في التقدير ، اذا كان ما يراه كثير العدد ، معول على الخيال دون العقل ... ان شغفه بالخيال ، وتلذذه بالمحال ، يولد الا فيه حب المبالغة والغلو ، حتى في النظر الى حقائق التاريخ ، وحقائق الحياة اليومية فالمؤرخ من هذا القبيل شاعر ، والشاعر مؤرخ ، والقصاص مؤرخ وشاعر معا ... » (٩)

خيال الف ليلة وليلة والمخترعات الحديثة

لا ، ليس يضير الف ليلة وليلة شيء من ذلك كله . فهي على مافيها من مآخذ وعيوب ، مازالت صرحاً من الزخرف شاهقاً ، وموسوعة من الأعاجيب والخوارق حافلة بأروع ماركه الخيالي البشري على مدار العصور . وقلما نجد في المكتشفات والمخترعات الحديثة شيئا لاتجد في خيال هذه الحكايات مغارز لجذوره . ففيها يتسرب الدواء مع العرق في مسام الجسم بواسطة صولجان من عقاقير يقبض عليه باليد . وفيها الزنبيل المربوط بالحبال ، يرفع اسحق الموصلي من أرض السوق الى أعلى القصر ، كأنه المصعد الكهربائي ، والخاتم الذي تفركه فيقضي لك حاجاتك كالزر الكهربائي في اجهزة شتى وقفها العلم على خدمة الانسان . والباب الذي ينفتح تلقائياً كلما اقترب منه علاء الدين ، كأنما هو احد الابواب التي تنفتح لنا اليوم عندما يخترق احدنا ذرات الاشعاع المكهربة المتشابكة . وجبل المغنطيس الذي يجذب كل مسمار في المركب ، كأني به مبعث الفكرة في صنع الألغام الممغنطة في الحرب الاخيرة . وطائر الرخ الذى يطير بالصخرة ليلقيها على مؤخر السفينة ويغرقها ، والطيور التي يأمرها سليمان ان تنقض من علو على الاعداء فتختطف عيونهم بمناقيرها وتضرب وجوههم بأجنحتها ، كأني بها الحيل التي تمارسها اليوم التقنية الحربية بالطائرات بحراً وبراً . والفرس الآبنوس ، يضع راكبها الصبية خلفه ، ويضمها شاداً وثاقها ، ثم يفرك لولب الصعود ، فتطير بها من وسط المرج ، كأنها الطائرة . وجراب الكردي وقد زعم صاحبه أن كان فيه حصون وقلاع ، وكراك وسباع ، وحجرة ومهران ، وفحل وحصانان ، ورمحان طويلان ، وبطريق وراهبان ، وقاض وشاهدان ، وكروم وبساتين تفاح ، وأقطار فساح ،

وعرائس ومغان وأفراح ، وهرجٌ وصياح ، وصور واشباح ، وطنبور ونايات...
كأنما هذا الجراب ، بما فيه ، يمثل انا التلفزيون . حتى ان انفجر الذري نفسه يتمثل لنا منحصراً في ذلك القمقم الصغير الذي ما ان فض الصياد خاتمه حتى ملأ الفضاء بالدخان والغبار ، وانبثق منه المارد الخيف الجبار ...

ومن قبيل ذلك مازعمه العرب القدامى عن قبيلة عاد ، فقد قيل انها هلكت بنار انبعثت في الجو من غمامة سوداء ، وكأنها الغمامةالسوداءالتي اهلكت في عهدنا مدينة هيروشيا !!

من مجمل ذلك كله ، ندرك الى أية آفاق بعيدة بلغ الخيال العربي ، ونلمس سبباً من اوجه الاسباب التي دفعت بألف ليلة وليلة الى طليعة الكتب العشرة الاولى التي هي اكثر مايتداوله القراء في العالم ، ويتضح لنا بجلاء الدافع الذي حدا الكثيرين على التهافت عليها من مقلدين ، ومترجمين ، وناشرين ، ومسرحيين ، وموسيقاريين ، وسينمائيين . ونعلم حق العلم لماذا قرأها فولتير اربع عشرة مرة(١١)، وقال عنها غالان ان من قرأها كأنه رحل الى الشرق (١٢) ، وتمنى استندال لو محيت من حافظته ليعود في كل عام الى التمتع بتلاوتها من جديد(٦) !

- ٧ -

جسور الاتصال

بين العرب والغرب

تلاقي الحضارتين

كيف اتّصلت حضارة الغرب القديمة بالعرب ؟

وكيف اضمحلت حضارة الغرب القديمة بعد أن بلغت ما بلغته من الشأن الخطير ؟

وكيف عاد العرب فحملوا الى الغرب مشعال الحضارة ووجدوا الجهل المطبق سائداً فيه ؟

أسئلة ثلاثة يقتضي الاجابة عنها بايجاز ، قبل أن نعرض لجسور الاتصال بين العرب والغرب ، لنخلص من ثمّ الى الاستشراق الذي اكتشف الف ليلة وليله ، وبسط كنوزها العجيبة للعالم .

قلمّا تأثر العرب بالحضارتين اليونانية والرومانية ، عهد كانتا في أوج ازدهارهما الثقافي والسياسي ، لأن العرب كانوا في تلك العصور ، وقبل دعوة محمد ، قبائل رحلاً متكمشين على انفسهم ، مخلدين الى سكون مضاربهم ، منهمكين في فتنهم وغزواتهم القبلية .

ولما ضعفت روما في اواخر القرن الرابع ، وعجزت جبهات الامبرطورية الغربية عن صد هجمات البرابرة ، لم تكن الثقافة محصورة اذ ذاك الا في فئة قليلة

من خاصة الشعب اضمحلت باضمحلال الدولة ، وتناوشت آثارها أيـــدي الجهلة فطمستها ، حتى أن رهبان الأديرة — وكانت القراءة والكتابة قد باتتا وقفاً عليهم فقط في ذلك العهد — بلغ بهم الجهل ان استولوا على الرقوق التي اكتنز في مطاويها ما خلفه الاغريق والرومان من تراث فكري هو سجل حضارتهم ، وروح شرائعهم وفلسفتهم ، فكانوا يكشطون ماعليها ليدونوا فيها مواعيد اعيادهم وفروض صلواتهم وطقوسهم الدينية (١٦) .

ولكن آثار تلك الحضـــارة كانت منتشرة في الامبرطورية الشرقية البيزنطية فاتّصلت بفارس ، ومنها بخاصة المتأدبين من النساطرة السريان واليعاقبة والصابئة والمجوس والروم والبراهمة ، فترجموا بعضها الى السريانية والعبرية والعربية.

ولمّا خلف المأمون أباه هرون الرشيد ، واستتبت له السيادة ، بلغت الآداب أوج ازدهارها في عهده ، وصار البلاط العباسي في بغداد مجتمع المنشئين والمترجمين والنساخ ، وراح الخليفة يبذل المال من غير حساب في سبيل تنشيطهم حتى انه كان يعطي وزن ما يترجم له ذهباً ، ووقف عليهم عنايته وعناية وزرائه وعماله ، فأقبلوا على كل ما اتصل بهم من كتب الحضارة الغربية القديمة فنقلوه الى العربية (*) عن اليونانية واللاتينية ، خلا ماترجموه عن الفارسية والسريانية والسنسكريتية والنبطية (الكلدانية) وغيرها ..

ولما اكتسح العرب الغرب قبل المأمون بمئات السنين ، واندفعوا يوغلون فيه ، كانت قبائل البربر قد درست معالم الحضارة المسيحية ، في هجمات توالت مدى

(*) ترجم العرب في ذلك العهـــد مخلفات بطليموس ، وأقليدس ، وارسطاطاليس ، وافلاطون ، وأبقراط ، وجالينوس ، وأرخميدس ، وديسقوريدس وسواهم ...

بضعة قرون ، وكانت خاتمتها غزوة قبائل الهون بقيادة أتيلا ، أو « غضب الله » القائل ان الأرض التي يمر بها حصانه لاينبت عشبها الى الابد .

ولذلك لم يجد العرب في البلاد التي افتتحوها غير شعوب نهكها النضال ، واستولى عليهـــا ظلام الجهل ، وسادتها الأمية ، في زمن كانت فيه الثقافة تعمُّ الحواضر العربية .

وهكذا كان للعرب الفخر بنشر علم الحضارة والعمران والعدل والعلم في بلاد الغرب . فأخصبت تحت حوافر جيادهم الارض القاحلة التي مر بها حصان قائد الهون ، وتداركوا مابقي من رقوق الحضارة الاغريقية فانتزعوه من شدق الفناء ، وترجموه ودرسوه ، واضافوه الى مالديهم من الكنوز التي كانت مختزنة في الشرق ، واسندوا الى فلسفة اصحابها وعلومهم ، فلسفتهم وعلومهم الخاصة ، فكان لنا الفارابي (٨٧٤ - ٩٥٠) بغزارة حكمته ووافر علمه . والغزالي بإيغاله في أعماق النفس الانسانية ، وجابر في الكيمياء . وابن سينا والرازي وابن زهر في الفلسفة والطب . وابن رشد بعبقريته الفلسفية التحررية . وابن باجه بنبوغه وخطير شأنه على الرغم من موته مسموماً في ريعان شبابه . وتلميذه ابن طفيل بانتقاضه على التقاليد المنزلة وايمانه بجبروت العقل البشري . وابن ميمون بمواهبه الخارقة وقد كنّوه بسان توماز اليهود . وابن خلدون بمباحثه التي كانت اساس المدرسة الحديثة في فلسفة التاريخ والاجتماع . الى آخر من نبغ من قادة العمران العرب في الطب ، وعلمي الحيوان والنبات ، والطبيعيات ،والكيمياء ، والهندسة، والرياضيات ، وعلم الفلك ، والجغرافيـــا ، والزراعة ، والموسيقى ، وسائر الفنون والعلوم .

بهذه المدة أوغل العرب في اوروبة على ثلاثة من جسور الاتصال ، أولها شبه الجزيرة الايبرية وفرنسا ، وثانيها صقلية والبندقية، وثالثها الحروب الصليبية .

الجسر الأول : الأندلس وفرنسا القديمة

بسط العرب سيطرتهم على الأندلس طيلة ثمانية قرون ، فكان من شأنهم فيها ماهو معروف . ودخلوا فرنسا غزاة فخذلهم شارل مارتيل . ولكنهم لم يرتدوا عنها ، بل توغلوا مدى قرنين ، بعد معركة بواتييه ، في جنوبها ،وامتزجوا بأهلها ، فأبقوا فيها أثراً لحضارتهم بيناً ، وعلموا الفرنسيين ، وبواسطتهم الأوروبيين ، كيفية استعمال الأرقام والكسور ، وفن الزراعة وصناعتي السجاد والورق (١٢) . كما انهم حملوا إليهم ، واليتهم لم يفعلوا ، النار اليونانية * وهي الشرارة الأولى لآفة حضارتنا المدمرة .

وفي أواخر القرن الثالث عشر انتقلت العلوم والفلسفة العربية الى الغرب وامتد لها جسر من اسوار طليطلة فجبال البرانس والألب الى قلب أوروبا ثم شمالها عبر المانش الى انكلترا . وصارت مدن مارسيليا وتولوز وناربون ومونبلييه عواصم فرنسية للفكر العربي .

الجسر الثاني : صقلية والبندقية وسائر ايطالياوفرنسا الحديثة

لو استثنينا اسبانيا لكانت صقلية البلاد الأوروبية الوحيدة التي ثبت

(*) هي مزيج من مواد ملتهبة كالزيوت والقطران كان العرب يقذفونها على السفن ويستخدمونها في الحصار والأعياد . وقد اتصلت بهم من الشعوب الأسيوية القديمة التي كانت تستعملها كالصينيين والهنود والمغول والفرس . ولما انضم أحد مرافقي معاوية عند حصار القسطنطينية الى معسكر الروم وقدمها هدية لقسطنطين الرابع ، استعملها هذا بنجاح في حروبه وعدها من أسرار المملكة فسميت منذ ذلك الحين بالنار اليونانية (١٨)

العرب فيها أقدامهم ونشروا منها ثقافتهم في شبه الجزيرة الايطالية . حتى انهم بعد ارتدادهم عن صقلية كان للعربية المقام الأول في بلاطات ملوكها . فملكها روجيه جمع بين شارتي محمد والمسيح في نقوده التي ضرب على أحد وجهيها « لا اله الا الله محمد رسول الله » (١٢) .

وقد جمع روجيه الأول حوله علماءَ العرب وشعراءَهم كما فعل بعده خلفاؤه الأمراء النورمانديون من سلالة « هوهنستاوفن » ، فكان ابنه روجيه الثاني (١١٣٠ - ١١٥٤) يرتدي ملابس العرب ، وكان وشاحه الملكي مزخرفاً بالكتابات العربية ، وكانت حاشية بلاطه تَزْدَان بالرحالة الأدريسي ، صاحب المخطط المشهور ، وأنبه علماء القرون الوسطى شهرةً في علم البلدان وتخطيطها . وهو أول من حدد موقع منابع النيل ، وقدصنع للملك كرة تمثل الفضاء الكوني ومخططاً للعالم اسطواني الشكل ، كلاهما من الفضة . أما حفيده فريدريك الثاني ، فقد كان يحيا حياة الشرقيين ، حتى أنه أفرد جناحاً للحريم في قصره (١٩) ، واستقدم الى بلاطه من سورية وبغداد فلاسفة ذوي لحى مستطيلة وأردية فضفاضة وراقصين من الشرق والغرب ، ووطـــد علاقاته السياسية والتجارية مع العالم الاسلامي وخاصة مع سلطان مصر (١٩)

وهكذا احتلت اللغة العربية في ذلك البلاط مقاماً خطيراً ، فصارت لغة العلم والأدب ، وكان لكتاب كليلة ودمنة عند الايطاليين الأثر الذي كان لألف ليلة وليلة عند الفرنسيين (١٢) . وانتشر في كثير من اللغات الأوروبية عدد كبير من الكلام العربي الجذور .

وكانت مدينة البندقية اولى المدن الايطالية التي تكلم أهلها العربية . وما

ان اخترع غوتمبرغ الألماني المطبعة حتى صدرت عن البندقية الطبعات العربية الأولى
خطبعت سنة ١٤٧١ تآليف يحي بن ماسوية في الطب والفلسفة . وكان البابا يوليوس
الثاني أول من نشّط طباعة الكتب العربية . وأول ترجمة صحيحة عرفت لكتاب
ابقراط في امراض الخيل هي ترجمة المعلم موسى احد ابناء « بالرما » اليهود . وعن
هذه الطريق تسربت فلسفة ابن رشد ، وطبعت الزبور باللغة العربية سنة ١٥١٦
وقانون ابن سينا في الطب سنة ١٥٩٣ ، والكلام للرازي ، وتحرير اقليدُس
للطوسي (١٢) .

وقد سبقت ايطاليا وفرنسا في الاستشراق لأنها مرجع الشرق الديني
ومنها انبثقت رحلة ماركو بولو الى الشرق، وقد طبعت في جزئين سنة ١٤٨٥ (١٢).

بعد ان طبعت الكتب العلمية المذكورة ، غمرت موجة الاستشراق أوروبا
بأسرها ، لا سيما فرنسا ، فطرق جميع كتابها المواضيع العربية ، وتأثروا بالأدب
العربي وبفكره واسلوبه اللذين تسربا الى الغرب قبل « الف ليلة وليلة » وبعدها
ولكن ترجمة هذا المؤلف وانتشارها السريع كانا السبب في التهافت على كل ما
يمتّ الى الآداب العربية بصلة .

ان مونتسكيو الخالد تأثر بابن خلدون في كتابه « روح الشرائع »
(١٧٤٨) ، كما يظهر ذلك جلياً في فصله الثامن عند كلامه عن نقد التاريخ .
وقد تقفى أثر مونتسكيو في ذلـــك المؤرخون ميشيليه ، وغيزو ، وتيارس ،
وأغوستين تياري (١٢) .

وتأثر ماكيافيلي ، وهيجل ، وجيبون ، بفلسفة ابن خلدون . واقتفى
جيمهم تعاليمه ؛ ودرس جيبون اسباب سقوط الامبرطورية الرومانية متتبعا بذلك

القواعد التي رسمها ابن خلدون في مقدمته . اما سبنسر ، وفروبيل ، ووليم جيمس. فقد اعتمدوا في أبحاثهم دراسة ابن خلدون في علم التربية . كما ان اوغست كونت (*) اعتمد آراءه في ميل الانسان الفطري الى انشاء المجتمع في الفصل الرابع من كتابه « الفلسفة الايجابية » .

وقد كتب ابن خلدون عن اعتقاده بتأثير المناخ على الانسان وأخلاقه ونفسيته ، وبالتالي على رقيه وعمرانه ، قبل أن يكتب عن ذلك المؤرخ الانكليزي باكيل بقرون عديدة .

وأثر ابن ميمون على سير الفلسفة في عصره ، ومن جامعة طليطلة اتصل أثر فلسفته بأوروبا ، الى ان انتهت الى التأثير على فلسفة ديكارت .

أما ابن رشد فقد أراد التوفيق بين الايمان والعقل . ويكفي للتدليل على عظمته أن كان لفلسفته في فلسفة الغرب تأثير حاسم .

ونقول — عوداً على بدء — ان جامعة باريس بدأت عام ١٣٢٥ بتدريس العربية . وأمر لويس الحادي عشر بتدريس أرسطو في شرح ابن رشد سنة ١٤٧٣ وأقر فرانسوا الاول عام ١٥١٩ تدريس العربية في « ريمس » كما انه أنشأ معهد فرنسا وجعل فيه كرسياً للعربية سنة ١٥٣٠ .

وجدد هنري السادس سنة ١٥٨٧ كرسي العربية في معهد فرنسا . وأنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر المتوفى سنة ١٥٩٥ المدرسة المارونية في

(*) عندما كتب شولتز في مجلة آسيا (آزي) دراساته عن نظريات ابن خلدون الاجتماعية سنة ١٨٢٥ ، كان كونت في السابعة والعشرين من عمره . ولا يخفى ان تلك المجلة كانت تصدر في باريس ، مسقط رأس كونت (١٨) .

روما وأعد لها مطبعة تنشر فيها تلاميذها ماترجموه من نفائس المخطوطات العربية . وانشأت فرنسا مطبعة نظيرها طبعت التوراة العربية سنة ١٦٤٥ وأرصد لها لويس الثالث عشر المال الكافي . كما ان لويس الرابع عشر أصدر مراسيم أعدها وزيره كولبير لتعليم العربية على نفقة الملك . فنشط الملوك الاستشراق العلماني . كما نشط البابوات الاستشراق الرهباني (١٢).

وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، درس علماء العرب في جامعة سالرنو الايطالية . ولا يخفي ما كان لهذه الجامعة من أثر في خلق سائر الجامعات الاوروبية . أما في جامعة مونبلييه فقد كانت تدرس فلسفة ابن رشد ، وابن سينا ، والرازي ، وعلوم ابن زهر . ومنها انتشرت الى جامعات بورغونيا ، ولومبارديا ، وسويسرا ، ولوفان (بلجيكا) ، وظلت فلسفتهم تدرس فيها حتى أواسط القرن السابع عشر . اما طب ابن سينا ، وكتابه القانون ، فقد ظل مرجعاً من مراجع التدريس الطبي في أشهر جامعات أوروبا حتى أواسط القرن الماضي .

الجسر الثالث : الحروب الصليبية

ولا ننس ما كان للحروب الصليبية ، في حملاتها الثماني ، مدى قرنين ، من شأن في تأثر الغربيين بالعرب ، واقتدائهم بهم . فبعد ان بعث هارون الرشيد بمفاتيح بيت المقدس الى شارلمان سنة ٨١٠ (١٢) ، وأذن ببناء مستوصف للحجاج في القدس يستجمون فيه بعد مشاق الأسفار ، تدفقت جموعهم بالآلاف ، وأساءت إحدى قبائل التركمان الى احدى قوافلهم ، وكان فيها بطرس الناسك الذي أضرم بعد عودته الى بلاده الحماس في الصدور ، وأوقد نار الحرب الصليبية الأولى . وقد

حمله بعض المؤرخين وزر الفتنة مع أنه لم يكن الا شرارتها . أما سببها الحقيقي فهو رغبة الغربيين في اتقاء الخطر العربي .

ولكن الثقافة العربية في زمن الصليبيين كانت في بدء عهد الانحطاط . رمع ان الصليبيين كانوا أقل ثقافة من أهل البلاد المسلمين ، فانهم لم يتصلوا في أثناء حروبهم بالطبقة الراقية ، بل قصروا ذلك على طبقات المزارعين والصناعيين الوطنيين ، فلم يكن لاتصالهم عهدئذ بسورية ما كان له من الأثر في اسبانيا وصقلية وأفريقيا الوسطى ، حتى في بيزنطية (١٩) ، الا بما تعلق بالصناعة والفنون ، أما أثره بالعلوم والآداب فقد كان ضئيلا (٢٠)

ومما تعلمه الصليبيون من العرب صناعة السكر ، وكانوا يستعملون العسل قبل أن يعرفوه . ومنهم عرفوا أنواع الأفاويه والأطايب، والفاكهة ، والصودا(*) وحفر الخنادق ، واستعمال النار لنقل أخبارهم في الليل واستخدام الحمام الزاجل لنقلها في النهار ، والنمط القوطي (**) في البناء وهو النمط الشرقي المعدل ، والابرة المغناطيسية ، والأرجح أن العرب أخذوها عن الصينيين ، والدروع الخفيفة ذات الزرد . أما البارود فقد اكتشف في أواخر القرن الثالث عشر كما أثبتت الوثائق التاريخية . ولا نعلم اذا كان اكتشافه قد جرى في سورية أو في أوروبا ، والأرجح الرأي الثاني ، أما الرواية التي تقول بأصله الصيني ، فيقول الاستاذ حتي في كتابه « العرب » انها غير صحيحة .

(*) أصل كلمة صودا من الصداع وكان هذا يداوى بها (١٩)

(**) بخلاف ماذكره بعضهم من ان النمط القوطي نقل عن بغداد وسمرقند وسائر البلاد العربية ، وذلك قبل افتتاح العرب للأندلس .

وفي احدى الحملات الصليبية بدأ الاستشراق الألماني حوالي سنة ١٩٤٥.
وكان فضل العربية على الاستشراق منوطاً بالذين تخلفوا من أفراد تلك الحملة في البلاد العربية (١٢) .

الاستشراق

وبينا كانت الثقافة العربية تتدفق كالسيل الجارف على الغرب ، كما قدّمنا ، قامت مدرسة الاستشراق في فرنسا بزعامة عميدها « ده ساسي » ، فكان لها ، ولتلاميذها من بعده ، شأن خطير في نشر الأدب العربي في الأقطار الاوربية . كما ان المدرسة الاستشراقية في المانيا رسمت الكثير من الانتاج الجرماني العبقري بطابع العربية ، لاسيما شعر « غوت » الحافل بما في جو الشرق من نورانية وروحانية وفتون ، وحسبنا للدلالة على ذلك مؤلّفه «ديوان الشرق والغرب » ، وقد استعان على تدبيجه بالمستشرق « كوزيغارتن »(١٧٨٢-١٨٦٢) ثم بـ «ده سوريه» وسواهما من اصدقائه المستشرقين (١٢) .

اما المدرسة الاستشرافية الايطالية فقد نوّهنا بما كان لها من أثر . وكان هنالك الاستشراق الدانمركي ، والروسي ، والانكليزي (*) ، والهولندي ، والنمسوي ، والسويسري ، والمجري ، والأسوجي ، والبورتغالي ، والاسباني ، والفنلندي ، والبولوني ، مما لو جئنا عليه جميعه لطال بنا البحث كثيراً .

(*) أول كتاب طُبع بالانكليزية على أثر اكتشاف الطباعة كان كتاب « مختار الحكم » الذي وضعه الأمير السوري مبشر بن فاتك (حوالي ١٠٥٣) ، وقد ترجم الى الاسبانية بعنوان Bocados de veo ، وطبع بالانكليزية عام ١٤٧٧ (١٦) .

- ٨ -

مخطوطات ألف ليلة وليلة

وترجماتها وطبعاتها العربية

أنطوان غالان ، مستكشف كنوز ألف ليلة وليلة

ذكرنا آنفاً ان العرب لم يعدوا الف ليلة وليلة في آدابهم الراقية لرداءة لغتها، ولعدم انسجامها مع ماخلد في أدبهم من روائع اتفق لها الفصاحة والبلاغة معـــاً . ولكن المستشرقين اكتشفوها، فترجموها الى لغاتهم في ديباجة مشرقة، وأساليب بيانية رائعة، وكان اول من قام بذلك عام ١٧٠٤ أديب فرنسي من قافلة المستشرقين الأول ، اشتهر في عصره بالاستشراق وعلم الآثار ، يدعى أنطوان غالان (١٦٦٤ - ١٧١٥) . ولكن شهرته كمترجم حكايات الف ليلة وليلة خسفت بعد ذلك كل ماكان قد اكتسبه من شهرة سواها (٣) .

قاسى غالان الصعوبات العظيمة في الحصول على الحكايات التي نقل عنهـا ماترجمه ، فجاءت الترجمة في اثني عشر جزءاً ، طبعت على ست دفعات متقطعة بين سنة ١٧٠٤ - ١٧١٧ . حتى أن الجزئين الأخيرين وجـدا بين أوراقه بعد موته فكانا آخر ماطبع منها .

بدأت قصة هذه الترجمة بأن وقع لغالان سنة ١٧٠٠ مخطوطة عربية مجهولة الاصل تحتوي قصص السندباد البحري (٢) فترجمها عام ١٧٠١ (٦). وعرف بعد ذلك

انها لم تكن غير قسم من مجموعة حكايات اسمها ألف ليلة وليلة فراح يبحث عنهـا . وخدمه الحظ الى درجة خارقة ، فأرسل اليه من سورية أربعة أجزاء مخطوطـة لهذا المؤلف لاتزال تعتبر حتى اليوم أقدم مخطوطاته المعروفة ، وهي تشتمل على أجود أصول الحـكايات ، ولاتزال اجزاؤها الثلاثة الاولى محفوظة في المكتبـــة الوطنية الفرنسية ، أما الجزء الرابع فقد لعبت به يد الضياع (٢). وسنعود فيما بعد الى التحدث عن أجزاء هذه المخطوطة التي نقل عنها غالان الاجزاء الأربعة الاولى من ترجمته ، ثم تابع السلسلة باضافة حكايتي السندباد المترجمة قبلا ، وقمر الزمان ، وقد ترجمها عن نسخ مفقودة .

ونضبت المادة بين يدي غالان فتوقف عن العمل طيلة سنوات ثلاث الى أن طبع له الناشر الجزء الثامن الذي ضمنه ماترجمه « بيتي دهلا كروس » لكتابـه « ألف نهار ونهار » .

ثم عاد غالان الى الانقطاع عن الترجمه لاحتياجه الى مواد جديدة،وراح يفتش عنها على غير طائل ، حتى تسرب اليأس الى نفسه . ولكنه التقى سنة ١٧٠٩ رجلا مارونيا من مدينة حلب يدعى حنا جاء باريس برفقة الرحالة الفرنسي « بول لوكا » فوجد به ضالته المنشودة لأنه كان يختزن في حافظته قصصاً كثيرة رائعـة فراح يرويها له بالعربية ، فدون غالان بعضها في مفكرته ، ثم قدم حنا اليه البعض الآخر مكتوباً فأنجز بذلك كله الاجزاء الاربعة الاخيرة من ترجمته ، كما ذكر ذلك بتفصيل في مذكرته .

أما الحـكايات التي كتبها حنا فقد فقدت أصولها (٢) وأما المخطوطـة التي أرسلت الى غالان من سورية بعد سنة ١٩٠٠ فتشير الأدلة الى أنها كتبت في مصر ،

ثم تملكها رجل من طرابلس وكتب عليها تاريخ تملكها سنة ٩٤٣ هـ.الواقعة سنة ١٥٣٦ ثم انتقلت الى حلب سنة ١٥٩٢ - ١٥٩٣ ويقول د . ب. ماكدونالد في دائرة المعارف البريطانية ان تاريخ تدوينها يستحيل تحقيقه بالضبط ، ولكننا قد عالجنا تحديد زمنه في الفصل من هذه المقدمة فليراجع.

مآخذ على غالان

ولكن ترجمة غالان غير كاملة . والمخطوطة التي اعتمدهالا تعد أكثر من ٢٨١ ليلة (٣). وفي ما سيلي من هذا البحث الايضاح الكافي عن النسخة الكاملة التي جمت في أواخر القرن الثامن عشر ، وأقرها زوتمبرغ ، فأصبحت أساسا لطبعة بولاق التي تمد الطبعة الكاملة لما يتداوله الناس من حكايات الف ليلة وليلة.

وظلت ترجمة غالان ، مدى قرن ونيف ، الترجمة الوحيدة التي عرف بها الغرب هذا المؤلف (٢) ، وقد أعيد طبعها مرارا كثيرة وزيد عليها قصص جديدة واعتمدها المترجمون فنقلوها الى كثير من اللغات الاوروبية . وفي عام ١٧٠٧ ترجمها الى الانكليزية كاتب انتحل لنفسه اسماً مستعاراً وسماها « سمر الليالي العربية» .

ومما أخذ على غالان في ترجمته أنه بتر من الحكايات كل ماتضمنته من جرأة ، وصفاها مما حوته من موالح ، فجاءت غير كاملة ، مقتصرة على ربع القصص . وأن معظم الحكايات ، وهو القسم الذي لم يترجمه غالان ، لا يقل بأهميته عن القسم الذي قام بترجمته . هذا عدا أنه قصر الحكايات ومسخها ، وحذف الشعر منها ، وكيفها على عقلية أديب عاش في عصر لويس الرابع عشر ، وكأنه كتبها للبلاط ، ففيها يتخاطب السلاطين والوزراء ونساء العرب والهند بنفس

اللغة التي تتخاطب بها الخاصة في أبهاء فرسايل ومارلي . وكأن هذه الترجمة لا علاقة لها البتة بالنص الأصلي الموجود في الأصل العربي (٦)

الدفاع عن غالان

ذلك ما قاله عن ترجمة غالان ، ناشرو ترجمة « ماردروس » الكاملة التي سيجيء الكلام عنها . ولكن المتحمسين لترجمة غالان الكلاسيكية ردّوا عليهم بقولهم : « ان ماردورس لم يزد على ترجمة غالان غير التفاصيل . فهو لم يزد مقياس ذراع واحدة في وثبات حصان الآبنوس ، ولا زاد في ضخامة أجنحة الرخّ ، أو في فعالية طلاسم الأمراء الذين تيّمهم العشق والهيام ... كما أنه لم يزد كنزاً واحداً على ما ضمته مغاور الجبل من كنوز (٧) » .

ومهما يكن من كل ذلك فحسب غالان فخراً انه نال قصب السبق بين اقرانه المستشرقين باكتشاف كنوز « الف ليلة وليلة » فقدمها الى الشعوب الأوروبية التي طفقت منذ ذلك الحين تتناقلها عنه ، لأنه كان قصاصا ماهراً عرف كيف يبسط حكاياته للقراء ، فانتشرت انتشاراً عظيما في الغرب ، ونبهت العرب الى ما احتوته قصصهم من عبقرية بعد أن كانوا قد تجاوزوا عنها في أدبهم ونبذوها.

اكمال ترجمة غالان
بواسطة كاهن سوري

في عام ١٧٨٨ صدرت أربعة أجزاء ملحقة بكتاب « حجرة الجنيات » (جنيف ، ١٧٨٤ - ١٧٩٣) أولها الجزء الثامن والثلاثون ، وآخرها الواحد والأربعون ، تحت عنوان « ليالي السلطان شهريار » ، وقد جاءت هذه الأجزاء

الأربعة متممة لترجمة غالان في سلسلة من الحكايات ترجمها دانيس شافيس من العربية الى الفرنسية وعاونه « كازوت » في تدبيجها ودانيس شافيس هذا ، ولعل اسم عائلته شاويش ، هو كاهن سوري استقدمه البارون ده بروتاي من رومه الى باريس على نفقة الحكومة الفرنسية . والى هذا الكاهن السوري يعود الفضل بالعثور على احدى المخطوطات المدرجة فيها قصة علاء الدين (٢) .

اضافات اخرى

وتوالت في آخر القرن الثامن عشر الترجمات لغالان ، ولحكايات الحقت بترجمة غالان ، وامتد نشاط المترجمين والباحثين حتى القرن الماضي ، فصدرت بالانكليزية ثلاث ترجمات مستقلة للملحق شافيس وكازوت (سنة ١٧٩٢-١٧٩٤) .

وبعد ذلك بعام واحد نشر وليم بيلوي بضع حكايات عربية ترجمها له شفاهاً باتريك راسل مؤلف تاريخ حلب الطبيعي (١٧٩٤) .

وترجم جوناثان سكوت ، سنة ١٨٠٠ ، قصصاً جديدة عن مخطوطات لالف ليلة وليلة أحضرها من الهند جيمس أندرسن . وفي سنة ١٨١١ زاد على ترجمته المنقولة عن غالان جزءاً سادساً ضمنه حكايات استخلصها من مخطوطة ورتلي مونتاغ . وكان كوسين ده بيرسفال قد أضاف سنة ١٨٠٦ الى ترجمة غالان جزئين صحح بها ترجمة الكاهن شاويش التي زخرفها كازوت وخرج بها عن نصها الأصلي ..

أما طبعة ادوار غوتييه (١٨٢٢ – ١٨٢٣) فقد أضيف فيها الى ترجمة غالان قصص جديدة .

واستند فون هامر في ترجمته الى ما اكتمل له من نصوص ، مستجلباً من مصر نسخة من المخطوطة التي أقرها زوتمبرغ ، والتي صارت النمط السائر

والنسخة المستكملة لحكايات الف ليلة وليلة ، ونقل عنها ما أكمل به ترجمة غالان ، ولكن ترجمة هامر الفرنسية فقدت ، بيد ان نقلها الى الالمانية زينيبرلينغ (٣ أجزاء ، ١٨٢٣) ، وعنه ترجمها لامب الى الانكليزية (٣ أجزاء، ١٨٢٦) كما أن ترابوسيان ، وهو أديب فرنسي من مدينة (كاين) عاد فنقل الى الفرنسية ترجمة زينسر لينغ (٢) ونشرها في ثلاثة أجزاء ايضاً بعنوان «قصص غير منشورة من الف ليلة وليلة» (٦) باريس ، ١٨٢٤

ترجمة ماكسيميليان هابيكت

واصدر هابيكت في مدينة برسلاو سنة ١٨٢٥ خمسة عشر جزءاً من ترجمته الألمانية التي قال عنها انها جديدة . والحقيقة أنها لم تكن غير ترجمة لكتاب غالان وما ألحقه به كوسين ، وغوتييه ، وسكوت ، من حكايات .

الطبعات العربية

وقد بدأت تظهر في هذه الحقبة طبعات الف ليلة وليلة باللغة العربية ، في الشرق وفي اوروبا ، باستثناء الطبعة الجزئية التي نشرها ريتشاردسن قبل ذلك التاريخ كما سنرى :

١ — طبعة ريتشاردسن : هي طبعة جزئية قديمة صدرت بالعربية سنة ١٧٧٦ وقد أدرجها جوهن ريتشاردسن في مؤلفه « النراماطيق العربي » واقتطفها من مخطوطة ناقصة ، شبيهة بنسخة غالان ، لعبت بها بعد ذلك يد الضياع ، وكانت قد اتصلت بوليم جونيس حينما كان في أوكسفورد ، وقد اهداها اليه صديق له من علماء حلب .

٢ - طبعة الشيخ اليمني : المعروفة بطبعة كلكوتا الأولى ، والتي تسمى ايضاً « ذات المائتي ليلة الأولى » ، صدرت في جزئين (١٨١٤-١٨١٨) واعيد طبعها على الحجر سنة ١٨٢٥ . اما الأصل الذي بنيت عليه هذه الطبعة فمن الصعب تحقيقه دون الرجوع الى المظان التي يشير اليها ماكدونالد في «موسوعة الاسلام» وموجز مايستخلص من اقواله انها تنفرغ من مخطوطة باترك راسل التي أتي بها من حلب ، والتي لايزال جزؤها الأول محفوظاً في مكتبة « جوهن رايلاندس» في مدينة مانشستر . وقد اورد « راسل » في كتابه « تاريخ حلب الطبيعي » ١٧٩٤ وصفاً للحالة التي كانت فيها المخطوطة هذه في حلب . وجاء على وصفها ، بعد ان صارت في حوزته ، برسالة مسهبة نشرتها مجلة « جنتلمنس ماغازين » في شهر شباط سنة ١٧٩٩ .

ولطبعة كلكوتا صلة شديدة بالملحق الذي نشره « ل. لانجليس » في باريس عام ١٨١٣ في « غراماطيق اللغة العربية » تأليف « سافاري » مورداً فيه رحلات السندباد البحري ومكر النساء ، وأعاد طبعه على حدة سنة ١٨١٤ .

وقد ترجم « ج. ل. راسموسين» طبعة كلكوتا الاولى الى اللغة الدانمركية في أربعة أجزاء (كوبنهاغ ١٨٢٤) .

٣ — طبعة هابكت (برزلاو) : ونشر ماكسيميليان هابيكيت سنة ١٨٢٥ كتاب ألف ليلة وليلة بالعربية ، بعد أن نشره بترجمته الالمانية ، فصرف ثلاث عشرة سنة على اصدار ثمانية أجزاء منه (١٨٢٥ - ١٨٣٨) ، ثم أتم الطبعة « فلائشر » باصدار أربعة أجزاء سواها (١٨٤٢ - ١٨٣٨) . والذي يذكره هابيكت في أول الطبعة انه استند في اصدارها الى مخطوطة تونسية، لم يكن لهـا وجود قط ، فأحدث قوله بلبلة في تاريخ ألف ليلة وليلة (٢) .

وجل مايقال عن هذه الطبعة ان ناشرها لجأ الى النصوص التي ذكرناها عند كلامنا عن ترجمته الالمانية ، فأضاف اليها بعض ما اتصل به من شتى المصادر ، ودفع بالجميع الى الطبع دون أن يتدبر أصولها بالتهذيب والتنقيح ، خلافاً لما كان يصنعه المشايخ العلماء ، فجاءت طبعته منقولة بالحرف الواحد تتعاورها الفثاثة والابتذال . ولم يصلح منها غير قسمها المنسوخ عن مخطوطة غالان (٢) .

وقد اتخذ « وايل » هذه الطبعة أساساً لترجمته التي نقلها عن العربية في أربعة اجزاء (١٨٣٧ - ١٨٤١) . ولكن تباطؤ هابيكت في الاصدار ، وملاحقة الناشر والحاحه ، حملت « وايل » على اللجوء الى غالان والى مخطوطة « غوطا » ولم يرق لـ « وايل » عمله ، ولاارتاح الى الترجمة الا بعد صدور طبعتها الثالثة (١٨٦٦ — ١٨٦٧) ، وقد استند فيها الى نص هابيكت وطبعة بولاق معاً.

٤ — طبعة بولاق الاولى (نسخة زوتمبرغ) بحثنا في فصل سابق من هذه المقدمة ، في فقرة « الشيخ المجهول » عن تاريخ نسخة زوتمبرغ ، التي طبعت في بولاق عام ١٨٣٥ ، وأجمع المحققون على جعلها أساسا لحكايات « ألف ليلة وليلة » الكاملة وجعلها ماردوس حجر الزاوية في ترجمته الشهيرة كما سيجيء.

ومما يجدر بنا قوله من امر هذه النسخة ، ان زوتمبرغ فاز فوزاً عظيماً بعد ان اقرها ، بأن قضى على ما كان يحيط بتاريخ الف ليلة وليلة من غموض . فهو قد عرف كيف يمحص النسخة المصرية الحديثة ، ويرد اقسامها الى المنابع التي انبجست منها في شتى المخطوطات . فلم يبق على الباحثين بعد ذلك الا الرجوع الى تلك المخطوطات نفسها للتحقق من أن النسخة المصرية الشائعة ، وان يكن قد

جاء شيوعها متأخرا ، لم تكن الا مجموعة مكتملة لمختلف النسخ التي حاول فيها اصحابها الاتيان بنسخة كاملة فاخفقوا (٢).

وقد درس فريق من العلماء محتويات نسخة زوتمبرغ ، فدققوا فيها، وقابلوها على أصولها . وممن قام بذلك نولديك ، فقد وصفها ومحصها وكتب عنها مراراً في حياته الطويلة . وممن درسوها ايضاً اوستروب (كوبنهاغ ، ١٨٩١) و « و. ريشير » في دراساته (ستوتغارت ، ١٩٢٥) ، و « كربنسكي » في المقدمة المطولة التي صدر بها ترجمته الروسية (موسكو ، ١٩٠٤) « واميل غالتييه » بملاحظاته المنشورة بالفرنسية في مختصر الحكايات (القاهرة ، ١٩١٢) ، و « هوروفيتز » في « الثقافة الاسلامية » (حيدر أباد ، كانون الثاني ١٩٢٧) وفي مقالات له كثيرة سواها ، و « ليتمن » في ملحق ترجمته ، وفي دراسات غيرها (٢)

٥ ـ طبعة كلكوتا الثانية (طبعة و هـ. ماكنجتن) : واتصلت نسخة زوتمبرغ بالهند فطبعها ماكنجتن في أربعة اجزاء (١٨٣٩ ـ ١٨٤٢) وعرفت هذه الطبعة بطبعة كلكوتا الثانية او « الكاملة » وجزؤها الأول منقول عن طبعة برزلاو وعن طبعة كلكوتا الاولى .

٦ ـ طبعة بومباي : هي طبعة كلكوتا الثانية أعيد اصدارها على الحجر في بومباي عام ١٨٧٩ (١٢٩٧ هـ) في أربعة اجزاء ايضاً .

٧ ـ طبعة الآباء اليسوعيين في بيروت : هي طبعة مشذبة اعتمد لها ناشروها احدى المخطوطات التي كانت اساساً لنسخه زوتمبرغ . فطبعوها مختصرة بعد تهذيبها (١٨٨٨ ـ ١٨٩٠ ، خمسة اجزاء) .

٨ ـ طبعات الازبكية ، القاهرة ، وسواها من طبعات تجارية صدرت في مصر وغيرها من البلاد العربية وقوبلت على نسخة بولاق :

الترجمات الحديثة

ـ ترجمة تورينس الانكليزية : بينما كان معروضاً للبيع في مصر عدد كبير من النسخ المماثلة لنسخة زوتنبرغ ، كما يقول ماكدونالد ، كان هنري تورينس قد شرع بترجمة طبعة ماكنجتن الى الانكليزية . وقد صدر من هذه الترجمة جزء واحد فقط (كلكوتا ولندن ١٨٣٨) لأن تورينس عرف ان لاين عاكف على ترجمة الف ليلة وليلة فتوقف عن متابعة عمله .

وترجمته هذه تحوي الليالي الخمسين الأولى ، وتعد المحاولة الوحيدة التي نهد بها كاتب بعد غالان الى إلباس الحكايات ديباجة بيانية عالية . وقد كاد يبز بترجمته هذه كل من جاء بعده .

ترجمة لاين الانكليزية : هي غير كاملة ، ولكنها مشحونة بمعلومات ومباحث ذات شأن ، وفي غاية الأسهاب . بدأ اصدارها في أجزاء متعددة سنة ١٨٣٩ ، وانجز نشرها سنة ١٨٤١ . اعتمد بها لاين على طبعة بولاق الأولى ، وعلى بعض ماجاء في طبعة برزلاو .

ـ ترجمة جوهن باين الانكليزية : كتب باين يقول إنه ماكان ترجم الف ليلة وليلة لو لم يتوقف تورينس عن اكمال ترجمته . والحقيقة ان هذا أتم ماشرع به ذاك . فهو بعد ان اعتمد لعمله طبعة ماكنجتن فأكمل ترجمتها وطبعها بنفقته في تسعة أجزاء (١٨٨٢ — ١٨٨٤) ، عاد فألحق بها ثلاثة أجزاء سنة ١٨٨٤ معتمداً فيها طبعة برزلاو وطبعة بولاق الأولى . وأصدر عام ١٨٨٩

الجزء الثالث عشر وفيه حكايتا علاء الدين وزين الأصنام . وقد أعيد مراراً طبع هذه الأجزاء كلها بعد موت باين (١٩١٦) .

– ترجمة السير ريتشرد بورتن الانكليزية : اعتمد فيها طبعة ماكنجتن، ونقل فيها عن ترجمة باين حتى بلغ به الأمر غالباً أن أورد عبارات منها بكامل حروفها (٢) (عشرة أجزاء : ١٨٨٥، وستة أجزاء ملحقة : ١٨٨٦ – ١٨٨٨). وقد طبعت ترجمتا باين وبورتن أولاً في مائتي أو ثلاثمائة نسخة خاصة هي الآن مفقودة ، وأعيد طبع ترجمة بورتن وعرضت للبيع بعد تهذيبها (٦) ، كما انه أعيد طبعها كاملة بضع مرار (٢) .

– ترجمة ماكس هاننغ الالمانيـــة : بين عامي ١٨٩٥ و ١٨٩٧ ظهرت طبعة ألمـانية ، في ٢٤ جزءاً ترجمها ماكس هاننغ عن طبعة بولاق في أجزائها السبعة عشر الأولى ، ونقل أكثر اجزائها السبعة الاخيرة عن ترجمة بورتن .وهي ترجمة التزم كاتبها الأمانة في مجموعها . الا أنه حذف القليل من بعضها ، ولم يترجم غير النصف مما ورد فيها من الشعر .

ترجمة ماردروس الفرنسية

ورد في معجم لاروس أن ماردروس ولد في القـاهرة سنة ١٨٦٨ بينما جاء في المقدمة التي صدرت بها ترجمته الى اللغة الاسبانية انه ولد في سورية . وهو قد اعتمد لترجمته طبعة بولاق ، لانه وجدها اغنى الطبعات تعبيراً ، واكثرها تماماً وأوفرها انتيصاباً للمغنى. ولم يكتف بذلك بل رجع الى طبعة ماكنجتن ، وبرسلاو والى نسخ مخطوطة عديدة ، يستعين بما فيها على الافاضـة ببعض التفاصيل (٦) . فجاءت في ستة عشر جزءاً (١٨٨٩) . وقـــد ترجمها عنه الى الاسبانية فيسنتي

بلاسكو ايبانييس ، والى الانكليزية « إ . بوويس ماذرس » . ولها ترجمة غير كاملة باللغة البولونية .

ولم يترك ماردروس في قصص الليالي شاردة الا نقلها . ولم يتورع عن إيراد مافي الحكايات من فحش وخلاعة وتهتك . حتى انه اتهم بالانسياق مع ذلك الى أبعد مدى . وأخذ عليه في سائر ترجمته انه لم يكن أمينا في عمله ، لأن الترجمة لاتحمل الينا أي طابع أصيل لأية نسخة عربية كانت من النسخ المعروفة .

ومهما يكن من ذلك ، فلمردروس مريدوه الذين نشطوا للدفاع عنه ، كما أنه دافع هو عن نفسه — كما سبق وذكرنا عند كلامنا عن الدعارة والمجون في الكتاب — ونحن ممن يرون انه كان فناناً في عمله ، وان ما اضافه الى النص من تفاصيل ، أو خلعه على الشعر من بيان وعذوبة ليسا في صلب الأصل ، لم يكن منه الا اندفاعاً من الهوى في سبيل الاسهام في تجويد الحكايات الخالدة ، كما كان يفعل الرواة والنسّاخ الذين مافتئوا يعدّلون مافيها ويحسّنونه ، حتى دفعوها بالافتنان وحسن التخيل الى الأوج .

ترجمة اينوليتان الألمانية

وقد ترجمت الف ليلة وليلة الى الالمانية ترجمة كاملة ممتازة بقلم اينوليتان الاستاذ في جامعة طبنجن ، وطبعت في ليبزيغ ، في ستة اجزاء (١٩٢١ — ١٩٢٨) . وقد اعتمد فيها المترجم طبعة ماكنجتن ، مستعيناً على عمله باحدى الطبعات المصرية وبطبعة برزلاو . كما أنه ضمّنها نخباً من القصص التي أضافها غالان الى ترجمته . فجاء صنيعه مماثلا لصنيع « لاين » و« بابن » في الاجادة . وفي الجزء

السادس من ترجمة ليتمان المطبوع سنة ١٩٢٨ بحث ضاف قيم عن تاريخ الليالي ومصدرها ومحتوياتها وترجماتها (ص ٦٨١ - ٧٧١).

الترجمة الايطالية

وفي عام ١٩٤٤ صدرت في « تورينو » ترجمة كاملة مصورة لالف ليلة وليلة في أربعة مجلدات فخمة عني بها كل من الاساتذة « أنطونيو جيزارو » و « فرجينيا فاكا » و « كوستانتينو بانسيرا » و « أومبرتو رتسيتانو » مع مقدمة تاريخية أدبية نقدية بقلم الاستاذ « فرنجسكو غابرييلي » المستشرق المعروف.

الترجمة البورتغالية

لست بمقدم الأخوين كارنيرو ، صاحبي الترجمة البورتغاليه ، الى القارىء البرازيلي . فقد أكون في هذا الموقف أحوج إليها ، منها إلي . فالطبيب الدكتور سبسيليو ، (المولود في ٣ كانون الأول عام ١٩١١ في باراكاتـو من أعمال ولاية ميناس جيرايس ، هو الروائي النابغة مؤلف « النار المشبوبة » و « إثم في المناطق الحارة » و « مذكرات (متقمص) » و « حي براز » وأخوه جورج (المولود في سان باولو في ١٩ شباط ١٩١٩) اشتهر بروايته التاريخية « رؤيا القرون الأربعة » وقد أنشأها لتذكار تأسيس سان باولو في عيدها المئوي الرابع . وله عداها رواية « السر » وثلاثية « عجل الذهب » .

وما هذه بالمرة الأولى التي يشترك فيها الأخوان بانشاء كتاب واحد ففي عام ١٩٣٥ أصدرا بالاشتراك مؤلف « شهرزاد » قصص شرقية » .

ووالد هذين الروائيين البارزين هو أحد المثريين اللبنانيين في هذه البلاد يدعى يوسف غنام ، وقد ولد في طرابلس لبنان ، واعتنق في البرازيل اسم

كارنيرو لما ألفاه من تجانس معنوي بين هذا الاسم الذي تنتمي إليه إحدى الأسر البرازيلية ، وبين اسم عائلته الاصلية .

أما هذه الترجمة التي أنشآها في اثني عشر مجلداً فهي ترجمة كاملة اعتمدا لها طبعة بولاق العربية ، وترجمتي « ماردروس » الافرنسية ، وشقيقتها الاسبانية المنقولة عنها بقلم « بلاسكو إبيانيز » . ولكنهما انحرفا عنها جميعاً لأن سبلكا في ترتيب الحكايات طريقة جديدة ، فجعلاها تترادف حسب انواعها لا حسب ترتيبها الذي أقره زوتمبرغ . كما انهما قضيا على الترداد المملّ فحذفا منها لازمة كل ليلة ، بعد أن أبقيا عليها كأمثلة للاصل في الليالي الاربع الأولى والاربع الاخيرة .

ولما كانت لغة ألف ليلة وليلة قد كتبت في عصور الانحطاط فجاءت في اكثرها سقيمة ، كما سبق وذكرنا ، فلم ينقص هذه الرائعة الخالدة ليتم لها في الأدب العربي مالها من الشأن في أدب الغرب الا أن تكتب بالاسلوب الرائع الذي ترجمها به غالان وتوربنس وماردوس وهيكيت وسواهم ، وباللغة الراقية التي قام بترجمتها بها اليوم الاخوان سيسيليو وجورج كرنيرو .

سان باولو نوار ١٩٦١

مصادر دراسة الف ليلة وليلة

حسبما وردت أرقامها في متون الدراسة وحواشيها

١ ـ ج . أوستروب ـ موسوعة الاسلام

٢ ـ د . ب . ماكدونالد ـ ملحق موسوعة الاسلام

٣ ـ د . ب . ماكدونالد ـ دائرة المعارف البريطانية ١٩٥١

٤ ـ دائرة المعارف البورتغالية ـ البرازيلية

٥ ـ كتاب الف ليلة وليلة ، طبع المكتبة السعيدية ، مقابلة ومصححة على النسخة المطبوعة بمطبعة بولاق الأميرية سنة ١٢٨٠هـ ـ ١٨٦٢ م.

٦ ـ مقدمة الناشرين في ترجمة ماردروس الفرنسية

٧ ـ مقدمة الترجمة الاسبانية لـ « غوميز كاريجو »

٨ ـ جرجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة

٩ ـ أمين الريحاني ـ قلب العراق

١٠ ـ خير الدين الزركلي ـ معجم الأعلام

١١ ـ أحمد حسن الزيات ـ الف ليلة وليلة ، محاضرات المجمع العلمي ، جزء ٣ ، دمشق

١٢ ـ نجيب العقيقي ـ المستشرقون ، طبع بيروت ، ١٩٣٧

١٣ ـ المسعودي ـ مروج الذهب

١٤ ـ الطبري

١٥ ـ توثيني

١٦ ـ وولف

١٧ ـ جورج ليان ـ الطب العربي ، بالبورتغالية

١٨ ـ جورج ليان ـ العرب قبل النهضة ، بالبورتغالية

١٩ ـ فيليب حتي ـ العرب

٢٠ ـ غوستاف لوبون ـ حضارة العرب

٢١ ـ هنري توماس ـ عجائب المعرفة الانسانية

مشتمل

الصفحة

الصفحة

الصفحة

مؤلفات الشاعر المطبوعة

الأحلام ـ شعر	١٩٢٦
عبقر ـ الطبعة الأولى ـ شعر ـ	١٩٣٦
عبقر ، في طبعاتها المطولة ـ شعر ـ	١٩٤٩
لكل زهرة عبير ـ شعر ـ	١٩٥١
نداء المجاذيف ـ شعر ـ	١٩٥٢
عيناك مهرجان ، شعر ـ	١٩٦٠
سنابل راعوت ـ شعر ـ	١٩٦١
شرارة ، قصص قصيرة ـ نثر ـ	١٩٦٤
عبقر ، بالبورتغالية ـ شعر ـ	١٩٤٩

حبات زمرد

دراسات وطرائف شرقية

جمال الأدب ونقده

ما نحن من يؤمن بالمذاهب في الأدب . ولا من يتحزّب للمدارس في الشعر . فالشعر فنٌّ ركيزته الجمال . والجمال وُجد قبل أن يخلق الأدب القديم بما فيه من مثال الكمال يُحتَذى . وقبل أن ينبثق الجديد بمناحيه المتشعبّة وقد جعلوا منها نظماً تُتَّبع ، وعقائد تُعتنق ، لو تدبّرناها كلّها لكانت محضَ اجتهادٍ لا طائل تحته ، اذ قد يتفق للشاعر الواحد ان يُنتج ما يشمل تلك الأساليب جميعاً ، فيجيء عمله عفوَ الخاطر دون أن يكون محمولاً عليه بخطط مرسومةٍ أو قانونٍ مسطور .

فالأدب الحقّ يقاس بما فيه من جمال ولا يُوزن بمثاقيل النُّظُم والمذاهب . ومهما أمعن الرويّة علماءُ الأدب الحديث في درس جمال الأدب ، فهم لا يخرجون في تحديدهم عما رواه ابن المعتز من أن معتوهاً سُئِل ما هو الشعر ، فأجاب : ما لم يحجبه عن القلب شيء .

والشيء الذي يحجب الشعر عن القلب ، كلامٌ ضعيفُ الأداة شوّه به عبيدُ الإبتذال ما تكشّف لهم من معالم الجمال . وهو كذلك قولٌ متينُ الحبْك ، جيّدُ السبك بيد أنه خلوٌ من المعنى المستنبَط ، لم تنبجس منه منابعُ القلب والروح ، ولا توفّرتْ له العناصر المُضْفية على الشعر أظلالَ الجمال وأضواءَهُ ، فكان أصحابه عبيد الديباجة ، وكان كلامهم جافاً لا حظّ

له في الخلود . أما الأدب الحيّ فهو ما اتفق له كلا الأمرين معـــاً ، جودةُ الصّوغِ وروعةُ الفن والجمال .

• • •

ليس من يجهل أن في الادباء من نادوا مرة بجعل اللغة الشعبية موضع الفصحى حتى أنّ أحد الكتّاب أرسل إلينا يقول : « انظموا لنا بلغة الشعب ليفهمها الشعب . أما أنتم شعراء الفصحى ، فقد أصبحتم تنظمون لأنفسكم ولكي يقرأ بعضكم بعضاً » وعلى رغم ما يعتورُ هذا القولَ من إغراق ، فهو لا يخلو من حقيقة . وقد أجبناه آنئذٍ بقولنا : « ما ذلك ذنبُ اللغة بل ذنبُ أبنائها فالأولى بهم أن يتساموا هم اليها لا ان تتدنّى هي اليهم . » وقد فاتنا في ذلك الحين ان نستشهد بما قاله الطائي لرجل سمعه ينشد في حفلٍ فسأله : يا أبا تمّام ، لما لا تقول من الشعر ما يُفهم ؟ فأجاب : وأنت لِمَ لا تفهم من الشعر مايقال؟

وما نحن من يناصب الأدبَ الشعبيّ العداءَ ، فكم مقطوعةٍ منهُ حقها أن ترُصَفَ بين روائع الفصحى ، ولكن لكلٍّ من الأدبَين طرازه الخاص وجوهُ المعهود ، فما يُطربنا الواحد لأن نسيجَهُ كلامُ الشعب ، ولا يهزنا الآخر إذ هو فصيحُ العبارة متينُ الديباجة ، بل لأن كلاً منهما أسبغَ عليه قائله حلل الفن ، وجلببه بمطارف الجمال فلم يحجبه عن القلب شيء .

فقيمة الأدب اذن جماله . وهو هذا الجمال الذي نريد نُقّادنا عليه . ونستنهض كتابنا الى النظر فيه . ليتدبروا محاسنه ، ويصوروا تأثيره في القلب وتلاعبهُ بالمشاعر . فقد شاع لدى بعض النقاد داءُ التنديد بالمساوىء ، والتغاضي عن المحاسن . مع ان النقد هو تمييز النتاج لمعرفة جيده من رديئه . وإن ا دق

اساليبه وأوسعها عند الفرنجة هو النقد الإستاتيكي ، المرتكز على علم اصول الجمال في الفنون والأدب ، وتحليل العاطفة التي يبثها هذا الجمال في نفوسنا .

فالنقد لا يقتصر اذن على استقراء الحسنات وحدها ، ولا على انتقاد العيوب فحسب ، بل هو قائم عليهما معاً . ولا نحسبنا مخطئين اذا جعلنا درسَ جمال الأدب الهدفَ الأسمى والغاية الأولى من النقد ، فلا غرو بالعيوب الا مروراً ، كي لا يعود الى اقترافها العاثر ولكي يتنكب عن مزالقها القارىء .

اما ان يذهب الناقد العَيَّابَة مع نزعات النفس ، فيسرف في القدح والتقريع فماذلك الا مهاترةٌ متى كان للنتاج قيمة ، أو إضاعةُ جُهدٍ إن لم يكن للأثر شأن . وإن أثراً لاشأنَ لهُ لأولى بأهل الادب الاغضاء عنه واهمال ذكره .



من أدب الفُرس

لمحة عن شعراء الفرس

أدب فارس القديم

أقدم ماذكره المؤرخون عن آداب الفُرس كتاب الأفستا المقدّس. وهو مجموعة كتب دينية للبارصيّين عبّاد زوروسترا ، يرجع عهدُها الى القرن السابع قبل مولد الناصري ، وقد ردّها البعض إلى ماقبل ذلك .

دُوِّن كتاب الأفستا باللغة البارصيـــة على اثني عشر الفاً من جلود الثيران . فلمّا اكتسح الاسكندر بلاد فارس فُقدت . وقد تصدّى للتاريخ من قال إن العرب أتلفوها أبّان فتوحهم ، وهذا لا يُعقَل وبين الفتوحَين عشرة قرون ، فلو انها بقيتْ إلى ما بعد غزو الإغريق لما كان فاتَ ذكرُها الرواةَ والمؤرخين ، ولـمّا ظلّ وجودها مدعاةً للظنّ في حقبةٍ من الدهر مديدةٍ ، تناهز الألف سنة .

نهضة الشعر والعرب

بزغ عصر النهضة في بلاد فارس في القرن العاشر الميلاد ، وفاض نوره في القرن الذي عقبهُ على يد طائفةٍ من شعراءٍ كبارٍ حفلَ بهم بلاطُ السلطان محمودِ الغَزْنوِي .

ولا مشاحة أن الفتح العربي جلّ الفضل في بعث تلك النهضة فما أن مرّ على الفتح قرونٌ ثلاثة ، حتى تمرّس الفرس بالآداب العربية ، ودرجوا على آثار مَن نبه من عباقرها ، فتجلّت تلك الثقافة في أدبهم . وهذا هو الفردوسي ، كبير شعرائهم القصصيّين ، فقد كان لقصائده العربية صدى استحسان في بلاط بغداد ، وهو قد اعتمد ما عرّبه عبد الله بن المقفّع عن سير ملوك فارس في نظم قسم من ملحمته الشاهنامه .

وهذا معاصره ابو النجم أحمد ، منو جهري دامغاني ، فانّ في شعره أثراً للعربية واضحاً وقد شبّهه الغربيُّون بالشاعر الفرنسي « رونشا » لمواهبه العبقرية ، ولما كان له من الشأن الخطير في نهضة الشعر في عصره .

والمُعِزّي الذي لُقّب بملك الشعراء ، في زمن سنجار ، آخر أمراء السلجوقيّين ، فقد حاكى بمنظومه شعراء العرب الأقدمين ، فاستوقف الحادي ، وبكى على الأطلال والدمن .

وعمر الخيّام كان شاعراً بالعربية ، كما عرف عنه . والسعدي تلقّى دروسه في بغداد ، آخذاً العلوم الظاهرة عن الشيخ شهاب الدين ، والباطنية عن الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وذكرت له عشرون قصيدة باللغة العربية ، وحافظ الشيرازي ، الذي درس الفقه والآداب العربية ودرّسها في مدينة شيراز .

وكلّ من تقفّى هؤلاء الشعراء يرى أنهم وسموا بطابع الآداب العربيّة ، واستوحوها الكثير من نتاجهم حتى أن قصة مجنون ليلى وغيرها قد استهوت

منظميهم ، وكانت مبعث وحي لتآليف العديدين من كبار شعرائهم كالنظامي والجامي والهاتفي وسواهم .

كتاب الملوك

كان الشاعر أبو قاسم منصور ، الملقب ، بالفردوسي ، ألمع شعراء البلاط في زمن السلطان محمود ، فهو صاحب كتاب الملوك ، الشاهنامه ، وهي الملحمة الشعريّة التي تضمّ أخبار ملوك ايران منذ العهود الاسطورية في جاهليّة التاريخ حتى الفتح العربي .

مع أن تلك الملحمة معدودة من الروائع العالميّة فقد أخذ فيها على الشاعر الترديد والإطالة ، والتشابك والتراكم ، وامتناع ادراكهما على غير العارف ، وتعمّد الشاعر في بنائها وحشي الكلم ومهمله . ولكنّ في شطرها الأسطوريّ غنى وجمالا ، كما أنّ قسمها الحاوي أخبار الساسانيّين فيه تاريخ وافتنان وعاطفة وطنيّة وحماسيّة .

حكاية نظم الشاهنامه

ولنظم الشاهنامه قصة لا بأس بإيرادها . فالفردوسيّ ولد في شاداب ، على مقربة من طوس . وكان لنهر طوس قناة للريّ تتشعب منه . وسدّ من كومة بالحطب المحزوم والتراب ، فيحصر المياه فتفيض في القناة . وكان السدّ ينهار كلما رفعوه ، فتجفّ القناة . فيشهد الفردوسي ذلك في حداثته ، ويفكّر في بناء سدّ آخر من الصخر والملاط . وظل يلازمه هذا الحلم مدى حياته ولئن لم يتحقق إلا بعد موته فقد كان لهُ في تطوّر مقاديره وفي نباهة اسمه اثر بالغ .

وكان أبوه من وجوه قومه . فزوّد ابنه بثقافة عالية . فلما شب الفردوسي ، عرف في طوس شاعراً يلقّب بالعقيقي ، كان عاكفاً على نظم سِيَر ملوك فارس ، غير أنّ العقيقي قتِلَ وهو لم يتمّ من ملحمته غير ألف بيت . فانبرى الفردوسي للمهمة عينها واعتزم القيام بها ، وذاعت شهرته بما عُرف له من منظوم . فاتّصل ببلاط السلطان محمود في غزنه ، ونال لديه حظوة عظيمة فعهد إليه بنظم سِيَر الملوك ، بعد أن خصّه بجناح من قصره ينصرف فيه الى عمله وقد شاء ان ينقذه ألف دينار لكل ألف بيت ، ولكن الفردوسي رغب أن يدفع المال إليه جميعا بعد إنجاز الملحمة . وكانت فكرة بناء السدّ ماتزال تراوده وتدفع به الى ادّخار المال واقتحام الصعاب وترجي العظائم .

وقضى الفردوسي إثني عشر عاماً مكبّاً على نظم كتاب الملوك حتى أتمّه في ستين ألف بيت من الشعر . ولكن حاسديه حاكوا حوله السعايات ، كما جرى للمتنبي في بلاط سيف الدولة . فلمّا شاء السلطان ان يجزيه بدينارٍ على كل بيت من الشعر تحقيقاً لوعده ، تعرّض له من أعوانه من صرفه عن عزمه وأقنعه باستبدال الذهب بالفضة ، وبإعطاء الدرهم عوض الدينار . فلمّا تسلّم الشاعرُ الفضةَ خاب أمله ووزّعها على مَن كان حوله وغادرَ غَزْنَةَ بعد أن هجا السلطان محموداً ، واعتزل العالم في طُوس حتى وافاه الأجل وهو في حالة الفقر المدقع . وقد اتفق ان السلطان ندم على فعلته فأرسل الى الشاعر الذهب الموعود به . فما ان وصلت القافلة طُوسا من أحد أبوابها ، حتى كان الناس يحملون جثمان الفردوسي ويسيرون به من الباب الآخر ليدفنوه في مأتمٍ عظيم .

وحمل رجال القافلة الذهبَ الى ابنة الشاعر . فامتنعت عن قبوله قائلةً إنها في كفافٍ من عيشها وفي غنى عن تلك الكنوز . ولكن شقيقة الشاعر

فطنت الى ما كان يساور خلدَ أخيها من رغبة في بناء السد ، وافضت إليهم بذلك . فبني على نهر طوس، وبقيت آثاره بادية الى ما بعد انقضاء أربعة قرون .

الشعر القصصي

ولا ينحصر شأن الشاهنامه في انهـا من الملاحم العالمية . فهي كانت للآداب الفارسية مطلع عصرها الذهبي . كما كان صاحبها قائداً لطائفة من الشعراء القصصيين تأثروا بأدبه واستأثروا بخطاه .

ومن الملاحم الوطنية التي اشتهرت « البرزونامه » وهي لشاعر مجهول نظمها على غرار الشاهنامه . كما ان الأسدي الطوسي هو أشهر من انصرف الى ذلك النوع من الشعر ، فنظم أساطير الأفغان ، وكان الفردوسي قد أغفل ذكرها في ملحمته .

وانصرف بعض الشعراء الى نظم الملاحم الرومانطيقية . فكان أقدمهم فخر الدين الكركاني في اواسط القرن الحادي عشر ، وهو ناظم ملحمة غرامية كانت مثالاً لما اختطه النظامي بعد قرن . والنظامي (١١٤٠ — ١٢٠٢ م) شاعر من الطبقة الاولى بز الشعراء في أدب الملحمة الرومانطيقية . واشتهر بديوانه ذي الملاحم الخمس ، فحذا حذوه في ذلك كثير من الشعراء ، بينهم هراجو ، وأمير خسرو دهلوي ، والجامي ، والهاتفي ، وفيض دكني .

الشعر الغنائي :

ان اقدم الشعراء الغنائيين في فارس هو الروكي السمرقندي عين شاعراً للبلاط في عهد الأمير نصر الساماني في بخارى . وكانت حياته فاجعة أليمة . فقد مني بفقد بصره ، ونقم عليه ، فلجأ الى مسقط رأسه في جوار روك حيث

قضى نحبه عام ٩٤٠ م وكان بلاط السلطان محمود ، كما قدمنا مجتمعاً للشعراء والأدباء ، في أوائل القرن الحادي عشر . فكانوا يفيئون إليه فيتناشدون الشعر ويناقشون فيه على نحو ما كان يجري في اسواق العرب في الجاهلية ، وفي الجامع العلمية في العصور المتأخرة . وكان جلهم من الشعراء الغنائيين . وأعظمهم بعد الفردوسي الشاعر منو جهري ، ويتلوه من الشعراء الأسدي والكسائي مرزوي والعصري ، والضائري والفرخي والعسجدي والأنوري وكانت للأنوري عند الفرس منزلة المتنبي عند العرب .

ولو رحنا نعدد الشعراء والغنائيين الذين أنجبتهم فارس على ممر العصور لطال بنا مجال القول . أما اعظمهم فهو حافظ الشيرازي ، شاعر الخمرة والحب . وسنعنى في مايلي بدراسة أدبه وبتعريب شطر من روائع شعره .

الشعر الصوفي :

ولقيت الصوفية في إيران أخصب تربة . فكثر فيها شعراؤها واختلط حابلهم بالنابل وتعددت فرقهم ، وتشعبت مذاهبهم بين غلاة ومعتدلين.

وكان أشهرهم جلال الدين الرومي ، صاحب « منطق الطير » وهو له أتباع ومشايعون . وكان هو ومحمد فريد الدين العطار ، والشاعر السنائي أشهر من نظموا الملاحم الصوفية في القرن الثاني عشر والقرن الذي يليه . فعدوا ثالوث الشعر الصوفي في ايران .

اما أقدم شعراء الصوفية فهو ابو سعيد بن أبي الخير (٩٦٧–١٠٢٠م) وكان صوفياً شمولياً ، تشيع لبايزيد البسطامي المتوفى سنة ٨٧٤م

والثابت ان السعدي الشيرازي قضى أعوامه الأخيرة زاهداً ، وكان عارفاً بتعاليم الصوفية . على اننا نرى نتاجه غير مطبوع بهـــا ، رغم اتصاله بالصوفيين في مطلع شبابه . اما الخيام وحافظ فهما من الصوفية براء . وقد حاول البعض الصاقهما بها عنوة ، ولا غرو ! فقد كان هم هـــذا البعض ، كلما وجدوا شاعراً غنائياً أن يُلبسوه جبة من صوف .

سعدي الشيرازي

بُورك لشيراز في المرع من أرضها . فقد أنجبت السعدي وحافظاً فيمن أنجبت من الشعراء الخالدين ، فتركا في مسمع الأرض دوياً ، وغمرت شهرتهما آفاق الشرق وفاضت على ماأوسعته لها يدُ الله من ربوع الغرب .

وُلد مشرف الدين السعدي سنة ١١٧٥ م ومات عن خمسة عشر عاماً بعد المائة . ولقب بالسعدي نسبة الى الأتابك سعد بن زنكي ، وكان والده مصلح الدين من المقدمين في حرسه . وقـــد ذكر « دولتشاه » وهو أقدم مؤرخيه ، أن السعدي قضى ثلاثين سنة في تلقي العلوم ، وثلاثين عاماً في الأسفار ومثل تلك الحقبة في الزهد والتعبد .

وقد أمّ السعدي بغداد حدثاً . فتلقى علومــه في جامعتها التي أسسها الوزير نظام الملك . ثم راح يوغل في التسيار مستعيناً بالأشغال على كلف الأسفار . فعمل حمّاراً في الاستانة ، وسقاءً في بيت المقدس . وحج خمس عشرة مرة الى مكة قبل أن يشرع بالكتابة والتأليف . وكان قد انتظم في سلك الدراويش

القندريّين ، وهم طائفة تكثر الحج ، وتردد التسابيح في طليعة القوافل ، وتحضّهم على الصلاة والتقوى . وجاب سورية والحجاز واليمن سيراً على قدميه وتجنّد لمحاربة الصليبيين ، فأسِرَ في الموقعة الاولى ، وسُخّر مدى سنوات في بناء الحصون في طرابلس ، حتى اتصل بـه تاجر حلبي افتداه من الأسر بعشرة دنانير ، ونقده مائة دينار ، وزفّ ابنته إليه . فكان زواجه شراً عليه لما كان لامرأته من شراسة في الخُلُق وقبح في التصرُّف . فطلّقها وكان قد اختزن من ذكر اسفاره كنوزاً من الحكمة . فانصرف بما في نفسه من عبقرية الى التدوين والنظم . فكان له من تآليفه ما أهّله ليصير اشهر شعراء فارس .

• • •

وُعرف السعدي بكتابه « الكولستان » أي حديقة الورد ، وهو من النثر المرصع بالشعر . قسمه الشاعر الى ثمانية فصول تحدث فيها عن الملوك ، والدراويش ، والزهد ، والقناعة ، وفوائد الصمت ، والشباب ، والشيخوخة ، والتعليم والتهذيب . وأنشأ في الفصل الأخير مقطوعات رائعة وحكماً شائقة . وله عدا ذلك منظومة سماها « البستان » ومؤلف اسمه « بندنامه » أي كتاب الأمثال ، وكتابان في المراثي . ومؤلفاته كتبت بالفارسية والعربية ، وطبعها هرنغتون في كلكتا سنة ١٧٩١ في مجلدين . وترجم بعضها الى معظم اللغات الشرقية والغربية . وقد اعتمدنا شتى الترجمات من فرنسية وسواها في تقريب ماسنختاره في مايلي :

• • •

كثيراً مانرى السعدي يحيا حياته في أدبه . فمتى علمنا أنه بدأ الكتابة في سن ّالكهولة أدركنا لماذا استهوته لذة النضج ، فقال :

« إصبر على الحصرم فيحلو »

ـ وهو لو لم يُعانِ مذلّة الأسر لما طالعنا بقوله :

« عبدٌ طليقٌ خيرٌ من أمير أسير »

ـ ولولا ما خبره في طيّ المجاهل والصحاري لما عرف أن يقول :

« من أبطأ في الصحراء بلغ المحجّة قبل من سار مهرولا »

والسعدي كان جوّابة آفاقٍ كما قدّمنـا ، دفعه حب الارتياد الى القول « بالتعرّف الى هذه الدنيا قبل الرحيل عنها »

وانك لترى في المقطوعة التالية حواراً بين راية الجيش وستارة القصر ، تستشف منه ما كان يجول في صدر هـذا الشاعر الرحّالة من طفرات متجازف وتنزّيات طـّموح ، قال :

نشب جدال في مدينة بغداد بين اللواء وستارة القصر .

فنهَرها اللواءُ بعنفٍ وتأنيب ، وقد أبرمه غبار المسالك

ونال منه كدُّ المواكب ، فقال :

« كلانا أجير سيّدٍ واحد في هذا القصر

أما أنا فلا أذوق الراحة ، لأني في تجوالٍ دائم .

وأما أنت فلا تُبتلَين بعذاب ولا حصار

ولا بصحراءَ او إعصار .

فعلام أراني دونك في ما يصيبك من حفاوة ،

وانا من تدفع بي نخوتي دوماً الى الطليعة ؟

« انك تحبين الحسان الجميلات كالبدور
وتحبين الغلمان المضمّخين بالطيوب
وأنا في قبضة فتيان الحروب دوماً مضعضعُ الحال
مطويٌّ على نفسي ! - »
فأجابته الستارة :
ذلك أنني أضع جبهتي على أعتاب القصر
فلا أقرع بها مثلك جبين السماء ! »

. . .

وامتاز السعدي بحكاياته الصغيرة التي لا تتجاوز الأسطر . وسادت معظمها روح الحكمة والارشاد . وكان في الكثير منها إنساناً بكل ما في معاني الانسانية من التسامي . فاستمعْ اليه يروي في كتابه « حديقة الورد » ما يأتي :

اتّجر شرّير بشقاء الحطابين . فكان يستنزف جهودهم
ويستثمر جهادهم ، دون أن يصغي الى ارشاد ناصح .
فامتدّت نار موقده ذات ليلة الى داره ، فالتهمتها
وأتت كل ما جمعه في باحتها من أكوام الحطب ، ولم يبقَ له من
وسائد الحرير الا ركام من رماد .
فلما راح يندب سُوءَ طالعه ويتعجب للنار كيف علقت داره ، قال له أحد الحكماء :
« أتعجب لذلك ، والتي أحرقت دارَكَ هي زفرات من ظلمتهم من البائسين ؟ . . .

ولكنه ما يعطف على الضعيف المسالم الا لينقم الشرّ على كل صاحب أذيّة ، اقوياً كان أم ضعيفاً . فنراه في كتاب « البستان » يستنزل الرحمات على مثوى الشاعر الفردوسي ، لانه قال في النملة : لا تعذّب نملة تجرّ حبّة حنطة فهي تروم العيشَ ، والعيش جميل لذيذ !.» - فيقول هو نفسه :

« من آذى نملةً كان ذا نفسٍ سوداءَ وقلبٍ من صخر ! »

ثم نجده ، في الكتاب نفسه ، يذكر امرأة منعتْ بعلها من إتلاف وكرٍ لزنابيرَ عشّشتْ في دارها ، واذا الزنابير تقحمها يوماً فتوسعها لسعاً. فيقول في ذلك ما هو في معنى أبي الطيّب :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ومن هـــذا النمط ما أورده من أنّ راعياً قال لأبيه : « إلى أي مدىً يجب ان أكون حليما ؟ » فأجابه أبوه : استمرّ يابني على حلمك حتى يوشك الذئبُ أن يصير جسورا !. .

• • •

وآراء السعدي في الحياة آراء من نظر واختبر ، وتمرّس بالآفات . فما هو بالمنقاد الى الأمور كالأعمى . ولا هو ممّن يَدْعَسُ الموطىءَ قبل التثبّت من صموده لنعله. حذرٌ في عزم . ألبس ما مرّ به في حياته لبوسَ الحكمة ، وجلاه في آيات على الدهر خالدة . فاسمعهُ يقول :

● اسحق رأس الأفعى بقبضة عدوّك . فاذا تغلب عليها هلكت . واذا أهلكته نقص أحد أعدائك .

- أنجع دواء للبؤس هو العمل
- يهب النسيم فيحرّك الغصون لا الصخور
- لا تعتدّ بقوّتك يوم يصبح عدوّك غير قادر على القتال
- سهلٌ على الرجل قتل الرجل ولكن المحال اعادته إلى الحياة فعلى النابل أن يتأنى ، فالسهم متى انطلق لا يعود
- قال ملك ظالم لأحد الدراويش : ماذا نحمد من أعمالي ؟ فأجابه « قيلولتك ففي إبان نومك لا ينالنا أذاك »
- لو قطف السلطان تفّاحة من حدائق رعاياه لاقتلع عبيده الشجرة من بعده !

وعلى الرغم مما في أدب السعدي من تفكير يماشي طباع الناس ، نلمح فيه لمَعاً للرفق والتسامح ، قد يكون انتقاضاً على ما فشا في ذلك العصر من فتن . فاسمعه في كتاب « البستان » يروي لنا الحكاية التالية :

حطم سكير قيثارة على راس رجل صالح . فما ان طلع النهار حتى جاءه الصالح ببدرة من الفضة وقال « كنتَ بالأمس سكران فغفرت لك . وأنت قد آذيت قيثارك ورأسي . اما رأسي فهو لامحالة يشفى . وأما قيثارك فلا شفاء له إلا بهذا المال ...

ولا يستغرب هذا من معدن السعدي وهو القائل :

كن كشجرة الصندل ، تعطر الفأس التي تقطعها !

• • •

اما الشاعر العاطفي الغنائي فان لم يبلغ فيه السعدي مبلغ حافظ شيراز ، فقد كان له فيه كثير من الروائع ، مثل قوله :

لئن تهالك البلبل على التغني بمحاسن الوردة ، فان كل شوكة من أشواكها لسان يصدح بشكران البلبل .

سأفتش عن خل أبثه في كل يوم أشجان قلبي فان لهبا يشب من عودين لهو أشد تلظياً من لهب يشب من عود واحد !

كما أن له في التمتع باللذائذ نظرة تبدد ماينغصه علينا تشاؤم الخيام بالمصير ، فالسعدي يُجمِل لنا نظرته تلك في قوله :

لماذا تفكر عند تنشق لوردة أنّ حسنها صائر الى الزوال ؟ إحفظ لنفسك ذكرى عبيرها ، فيهون عليك نسيان ذبولها .

وهو يعلو كثيراً حين يقول « إن الشهوة خير من الاكتفاء » أو حين ينشد ، وفي قوله مافيه من السمو :

أؤثر سماع صوت جميل على رؤية طلعةٍ فتانة !

فالوجه الفتّان يستثير شهوتي . أما الصوت الجميل فيصدح لروحي !

وهذا النوع من الإنشاد غير كثير في أدبه ، فهو لم يكن أدب تأمل وانخطاف أو استسلام والتياع بقدر ما كان أدب قوّة وتحكيم منطق ، حتى في أشد الساعات ثورانَ نفسٍ وفورانَ رغائب . فاستمع الى ما يقوله :

ثقْ بالمرأة التي تعطيك شفتيها وهي تنظر إليك .

أما إذا أطرقتْ جفنيها لأوّل قبلةٍ منك ، فكن منها على حذر

لأنها هي وحدها تعرف الرجلَ الذي تستقي قبلتها من شفتيه ...

ويقول في موضع آخر من كتابه « حديقة الورد » :

تقول لك إنها لم تعشق سواك ، فتبتسم أنت لأنها كاذبة .

ولكن ما همّك ؟

أفيجعل ذلك شفتيها اقلّ حلاوةً تحت شفتيك ؟

أم يُصيِّر منكبيها أقلّ اهتزازاً لدعاباتك ؟

ويذكّرنا هذا بقول موسّيه : ما تهمّنا الكأس ما دمنا نتمتّع بالنشوة ؟

. . .

والسعدي — على نقيض حافظ شيراز — واثقٌ من خبرته ، قابض على عنان ميوله ، ينصحك بالأخذ من عِبَرِهِ في حكاياته ، لأنه عالم بألاعيب العشق عِلْمَ أبناءِ بغدادَ باللغة العربية — على حدّ قوله — وهو يرى أنّ مجنون ليلى لو عاد الى الحياة ، لما احتاج الى غير كتابه ليُتقن فنّ العشق !

حافظ شاعر الخمرة

كان شمس الدين من حفظة القرآن ، فلُقّب بالحافظ ، وعُرف ببلبل شيراز لأنه وُلد فيها لثلاثين عاماً خلتْ بعد موت السعدي . وقلّما عرض له المؤرخون في شبابه لجهلهم تلك الحقبة من عمره . وانما ذكروا أنّه كان ابن خباز درس الفقه واللغة العربيّة والآداب . ونوّهوا بما كان له من نباهة وجاه في بلاط الامارة حيث كان له فيه مريدون وأنصار .

ولكن الأيام لم تسالمه . فلمّا اكتسح السلطان مبرّز الدين محمد بن المظفر بلاد فارستان ، واحتلّ عاصمتها شيراز ، ينكّل بأبناء الطائفة الشيعية ، وينزل أشد العقاب بمعاقري الخمرة . فنال حافظاً من ذلك الشيءُ الكثير . لأنه

كان في آنٍ واحدٍ شيعيّاً ومدمنَ خمر ، وقلّما خلت قصائده من ذكر الكأس والحانـة ، فانحطّت رفعتُه واتّضع قَدْرُه .

ومرّت سنواتٌ خمس ، فخلع جلالُ الدين شاه والدَه مبرّز الدين . وكان السلطان الجديد على نقيض أبيه مسامحاً ،معاقر خمرة فانكشفت عن حافظ غمراتُ المكاره ، وعاد الى سابق عهده يتغنّى بشعره ، ونشر ديوانه ، فذاع صيته في جميع الشرق ، وتوالت عليه هدايا الأمراء ، وتهافَتَتْ في استقدامهِ إليهم الدعوات ، ولكنه لم يتقبّل واحدةً منهـا بل آثر البقاءَ في مسقط رأسه شيراز ، فلزمها حتى آخر حياته .

* * *

ولحافظ ، عدا ديوان الغزل المشهور ، رُباعيّات ، ومثانٍ ، ومقاطع في الدين والحبّ والخمرة ، أدرجت كلّها في الديوان الذي جمعه أحد أصدقائه بعد موتـــه .

وقد رأى البعض أنـه كان صوفيّاً . وعجزوا عن إثبات ذلك ونحن نرى أنّ حافظاً تأثّر بالخيّـام الى مدى ، فنسج على منواله في التغنّي بالخمرة والمرأة حين قال :

● حَسْبُ السعادة خمرةٌ بنتُ عامين وكاعبٌ في الرابعة عشرة...

بيد أنه بزّ الخيّام في افتنانهِ بوصف الخمرة . وهذه نخبة من أقواله فيها:

● مباركةٌ اليـــدُ التي قطفت العنقود . ووقيَتْ العثار الرّجلُ التي داسته .

● لولا دم الكرمة لما دبّت الحرارة في عروق الربيع

● رغبتُ في الأمس أن اشرب ، فسقطت الخمرة من شفة الكأس ، واستقرّت في قلبي .

● عُودي لنطلق شراعنا في بحيرة الخمور

● أقبلي فإنني أفتش في الخمرة عن خرابي ولكن من يدري ؟ فقد يكون في الخراب كنزٌ مخبوء .

● أعطني الكأس أيّها الساقي ! ففي مرآته نبصر أحبابنا الغائبين.

● أنظرْ الى السماء تدور فيها العوالم على غير هدى ، وقد أُطبقت يَدَها إطباقاً محكماً على كأس اللذائذ .

● الشمس حارّة كالخمرة ، والقمر بارد كالكأس ، فاسكب لنا الشمسَ في القمر .

وهذه إضمامة ثانية في أقواله في الحانة :

● لا ترجُ ان تجد على عتبة الحانة ديناراً ، فبين جدرانها يُبَدّد كلُّ ثراء .

● في ظلّ الحانة ينام أؤلئك الذين يصوغون التيجان ويوزعونها .

● أرجعوني الى الصراط القويم ، فقد ضللت السبيل حين أدرتُ ظهري الى طريق الحانة .

● لأمرغن بتراب الحانة جبيني ! إنها وضيعة الجدران لكن سقفها يُطاول السماء !

● لئنْ بَدّلتُ الجامعَ بالحانة فما عليَّ من جُناح ! إنّ الموعظةَ كانت طويلةً . والعمرُ قصيرٌ !

• • •

ولئن اتفق حافظ والخيّام على التغني بالحانة والخمرة ، كما سبق ذلك لسواهما من الشعراء فان مناحيهما قد اختلفت في مواضع شتى من شعرهما . ففي الخيّام عمقٌ في الفكرة ، وتشوّقٌ الى المعرفة ، وتشاؤمٌ بالمصير ، وتَشه في التشبيب ، وقلقٌ في الاستسلام . يُقابلها عند حافظ هزؤٌ بالفكرة والمعرفة ، واستهتارٌ بالفضول ، وتفاؤلٌ بالمصير ، وتسامٍ بالغزل واستسلامٌ عن رضى وقناعة . فاسمعه يقول :

● لاتحزن اذا لم تدرك سرّ الحياة ، فان خلف الحجاب لذائذ كثيرة .

● إنّ في المروج لحديثاً عن الفردوس .

● لا يُشجيك انقضاءُ الزمن ، بل احبس زفراتك وخلّ دولاب الأقدار يدور دورته !

● إضرب مطمئناً أوتارَ عُودك ، واعزف اغانيك لنفسك !..

● ولئن أرهقتك المعرفة فغُلّ عُنُقها بأنشوطة من نشوة السكارى !

ومن أول المظاهر على حسن تفاؤله قوله :

● عُجْ أيها العابرُ بقبر حافظ ! ولئن كان قبره ملطّخاً بالآثام ، فقد يكون الله اختاره بين جميع خلقه لينعم بالفردوس....

وقوله في ختام ديوانه :

● لا تحزني بانفسي ، اذا كان سيلُ الزمن الجاوف قد حوّل مأواك الفاني الى خراب .

● وانت ياحافظ ! لئن لزمك الفقر في مأواك الوضيع وفي وحشة لياليك الحلولكة ، فلا تحزنْ !

● إن اغانيك قد بقيت لك ! وقد بقي لك حبّك !

• • •

وحافظ أخذ في شعره وأعطى . فقد رأينا انه تأثّر بالشعر العربي كشعر الخيام وسواه ، لأنه دَرَسَ اللغة العربيّة ودَرّسها . فنجد في شعره، إلى جانب ابتكاراته الرائعة، معانيَ مبتذلةً مطروقةً لا كتْها ألسُنُ شعراء العربيّة في المشرق والمغرب ، ولفظتها عن سأم أقلامهم . فما أكثر ما يذكر عيونَ النرجس ، وخدودَ الورود ، وقدود البان والسرو ، الى آخر ماهنالك من نسيمٍ وسولٍ ودمعٍ مُراق . وقد استوقفنا في إحدى قصائده ذِكْرٌ لاسم سُلَيْمى ، وما ان تبينّاه حتى استحال في الذهن فوراً الى بيتٍ عربيٍّ جاء تركيبه مطابقاً للأصل ، وإنما يتعثّر معناه السقيم بهذا الثوب البالي :

يا نسيمَ الصَّبَاحِ بَلّغْ سُلَيْمى إنْ تجىءْ حَيَّها أرَقَّ سَلامي

وبما أخذه حافظ عن سواه ، كما أخذه بعض كبار الشعراء ، قوله :

« توَرّعْ في إمساك هذه الكأس فهي قد صيغتْ من جماجم جمشيد وكاي كوباد وبهرام » فللمعري شيء من ذلك في داليته . والخيام قد سبقه الى المعنى نفسه في رباعيته في الجام والخزّاف ، في آخر النشيد الأول . كما ان

لشكسبير ما هو في معناه حينما أورد ان اناء الخمر قد يكون جُبِلَ من رفات الاسكندر ، وذلك في الفصل الثالث من رائعته المسرحية « هملت » .

ومتى علمنا ان حافظاً الشيرازي مدينٌ بشهرته العالمية لكبير شعراء الجرمان (غيتْ) ، إذْ ترجم شعره الى الألمانية في مؤلفه « ديوان الشرق والغرب » لم نعجب اذا رأيناه قد أعطى من شعره كما أخذ من شعر غيره ، ورأينا بعض كبار الشعراء الغربيين ينحون في شعرهم نَحْوَهُ ، حتى ان بين النقاد من اتهم فكتور هوغو باغارته على منظومه . فقد قال حافظ :

● حدّقتُ في السماء وقد انبسطت في مجد كأنها حقلٌ غير ذي حدود وكان القمر كالمنجل

ففكرت في موسم قطافي وتقت الى أيام الحصاد ...

وقال فكتور هيغو في نشيد « نَوْمُ بُوعَز » من ديوانه « اسطورة الأجيال » وما أروع ما قاله :

« كانت النجوم ترصّع السماء العميقة المظلمة وكان الهلال النحيل الناصع في الغرب بين تلك الزهرات ، زهرات العتمة ، فتساءلتْ راعون وهي ذاهلة وقد أغمضت جفنها تحت الحجاب نصفَ إغماضة : أيُّ إلهٍ بل أيُّ حَصّاد في هذا الصيف الأبديّ ، ولّى منصرفاً . بعد أن رمى دون مبالاةٍ هذا المنجلَ المُذهّبَ في حقل النجوم ؟ »

وشكّ الكثيرون في أنّ هيغو كان مطلعـاً على أبيات حافظ عندما نظم قصيدته هذه ، أمّا نحن فنجزم بأنه كان واقفاً كل الوقوف على آداب الفُرس وعلى شعر حافظ ولا مشاحة . فقد لحظنا انه توّج ثلاثاً من

قصائده في « الشرقيات » بأبيات السعدي . كما أنه ترجم في الشروح الملحقة بها أبياتاً من شاهنامة الفردوس ، ومقاطع لسواهما من شعراء فارس . حتى أنه استهل النشيد التاسع والعشرين ، وموضوعه « السلطان أحمد » ببيتٍ من الشعر لحافظٍ نفسه .

وتشبيه الهلال بالمنجل وردَ في الشعر العربي في البيتين التاليين لابن المعتزّ :

أنظرْ الى حُسنِ هلالٍ بَدا يهتكُ من أنواره الحندسا

كمنجلٍ قد صيغ من فضةٍ يحصد من زهر الدُجى نرجسا

وابن المعتز ، كما هو معلوم ، من شعراء القرن التاسع (٨٦١-٩٠٩ م) أما حافظ الشيرازي فقد عاش في القرن الرابع عشر

حافظ شاعر الحبّ

● أرقصْنَ ! أرقصْنَ لأناشيد حافظ شيراز ، ياصبايا سمرقند الرائعات الجمال ! وارقصن ياعذارى كشمير ، ذوات العيون البرّاقة كالماس الاسود إن عين السماء لم تقع على انضر من محبوبتي ، ولا عَرَضَ أرشقُ منها لسهام صيّاد .
● التراب الذي وطئته تحسده المياه الصافية فمن رأى أشبه منها بملائك الفردوس وهي التي لم يعلقْ ذيلَها غبار ! ....

ماهذه فقراتٌ من نشيد الانشاد ولو كانت منهُ لَـبَّا تنكّر لها سليمان ! انما هي لحافظ بلبل شيراز ، وقد بوأته ، مع ما شاكلها من هذا الطراز في شعره مقاماً من الأدب كمقام ابن داود ، فكان اعظم شاعرٍ غنائيّ عرفته بلاد فارس .

ولئن عُدَّ السعدي بمجموع شعره أعظم شعراء الفرس ، فان حافظاً قد بزّه بالشعر الغنائي وبرقة الغزل والنسيب .

عرفنا السعدي عليماً بالدهر والناس عارفاً بمخبآت الصدور ، بارعاً في تصيّد الحكمة من مواقعها . فذلك هو ميدانه الذي يصول فيه ويجول . أما حافظ فما ولج ذلك الميدان الا لجولات قصيرة كأن يقول :

- لا تعلقْ من خيرات الأرض إلا ما استطعت أن تصحبه معك .
- لاتحتقرْ أيها الغني فقيراً ! فان مجلسه على قارعـــة الطريق لمجلس كرامة.
- إن في تناقص قرص القمر خبراً ممّا تؤول إليه تيجان الملوك .

وكأنه رأى السعدي يقول : كن كشجرة الصندل تُعطِرُ الفأس التي تقطعها . فقال هو ايضاً : تعلّمْ من أصداف البحار الشرقيـة أن تحبَّ عدوك فهي تملأ باللؤلؤ اليدَ التي تحطمها .

وليس للسعدي قدرة حافظ الغزلية ولا عذوبته وتساميه . والسعدي اذا شبب تُحس في شعره رغبات لاظية جامحة . فما يتورع عن التغني برجرجة الردف وتشهي ما على القدود من ثمار فيخرق الى مـدى بعيد ما يقيمه حافظ للمرأة من حجب . أما غزل هذا فمطبوع على غير غرار ، يسخو به بلبل شيراز من روحه وقلبه ، فيحطم في ساعة اليأس جناحه ، على حد قوله ، وينزع ريشه ليبدده مع كل ريح . ولكنـــه لايستطيع التحرر من الحب ، لان حبه عصيُّ القياد .

إن حافظاً لهو شاعر الحب ، الحب الذي يعلو فلا يسف ، الحب الذي

« يخفي تحت أطماره البالية كنزاً فمن يسأله إحساناً فقد يظفر منه بتاج ..»

وهو شاعر المحبين يهيب بهم بقوله :

- نعموا شيراز ، يا أبناء الحب ، فالحب ينفحكم فيها بكل عطاياه .
- إن لحظة هنيئة تجود بها يده المباركة ، تفوق كل كنوز الأرض .
- السروة عبد نشر لنا بساط الظل الأزرق .
- والسوسنة أدركت بطلان الحياة فهي منذ ان فتحت للنور عينيها ترفع بيديها كأساً مترعة بالخمور .
- الخمرة صافية ، والبلابل سكرى بالشمس . هي فترة للحب سانحة وإن الحياة لجميلة .
- الوردة سحر عابق . والنسمة بِشرٌ مجنح ، والطيور منعشة تهب من كل صوب .
- طـــابت الخمرة ، يامحبوبتي فاشربي ولا تبطئي . ولا تقولي : سأشرب فقد لا نعيش ربيعاً آخر . أنظري الى السوسن والورود العاشقة فقد اجتمعت في الخميلة ، وشرع كل حبيب يملأ كأساً لحبيبته !

فما أبرع حافظاً يخلق وليمة للحب جعل عشاقها السوسن والورود ، وندماها الفراش والبلابل ، وكؤوسها وخمرتها الأكمام والندى . ثم لم تقنعه سوسنة أو وردة واحدة ، لأن ما في البستان له وحده ، فسخر ذلك الكل لما في روحه من شعر وغناء ، وفي قلبه من علوق بالحب ، جاعلاً لكل جدول ينبوعاً ولكل إشعاعة نوراً ، فقال :

- ما الماء المعسول ، وما بَشرتُها الناصعة لولا ما فيهما من القُبَل والدعابات ؟

● أيّ سحرٍ هو تمايل السروة وجنون الوردة لولا غناء البلبل ؟

● مباركة هي الخميلة ومباركتان هما الخمرة والوردة !

● ولكن ... ماقيمة كل ذلك اذا لم نكن محبوبتي معي؟

وهي تلك محبوبة حافظ الغاوية ، ذات الجمال العذب، يشتبك شعرُهُ بشعرِها فيهيم على وجهه هاتفاً : ماأكثر المخاطر في دروب الحب ! ألم أقل لك ياقلبي أن تبتعد عن ضفائرها ؟ فقد وقع حتى النسيم في أشراكها!

ثم يخاطبها قائلاً :

● لامسَت الكأسُ شفتيكِ ذات مساء ، فقالت : أنا الحياة مع انكِ أنت تهبين الحياة للكؤوس .

● لاعرفتْ شفتاك العذبتان قبلة إذا كانت بهما غير جديرة...

وفارقت حافظاً محبوبته ، فراح يشكو ألمَهُ منشداً :

● إنّ ما همسَ بـه النسيم توارى مع النسيم . فمنْ يذكرني بالتي تركتني ومضتْ .

● مضت دون وداع ، وهي التي كانت تقول لي بصوت خافت : « لن أفلت قط من قيود ذراعيك يا ينبوع رغائبي ! »

● انّ براعم روحي لن تتفتح ما لم أضمّ حبيبتي بين ذراعيّ .

● أنا شمعةٌ تحترق ! فأين لمثة شفتيها تضع حداً لعذابي ؟..

● نج يارب عبادك من عذاب الفراق ، فقد صيرّني غريباً في عُقر داري ، أجرّرُ الأيام منطوياً على نفسي في آلام وحدتي .

● لم تصيرّني الشهورُ والسنون شيخاً بل أنتِ يا محبوبتي ، لأنـك حياتي التي مرتْ !

ولكن طبع حافظ القناعة والرضى ، فهـــو لا يعنو لوحشة ، ولا يستسلم لحرفة . فما ان يشعر بتسرب القنوط اليه حتى يقول :

● لاتشكُ فراق الحبيبة ، أيها القلب الحزين ! ـ ففي الحياة تتجاور اللذات والالام ، كما تتجاور الورود والأشواك !

ثم يبعد عن فمه كأس المرارة ، ويتطلع الى طاس الساقي فينشد ما معربُه :

طالت بنا النّوى ومن حقنا يا ساقي الخمـرة أن نشربا
هات لنـا الطاسَ نشاهــد على مرآتــه أحبابنا الغيّـــبا

وينتفض بعد ذلك قلب حافظ خالعاً عنه رداءه القاتم ، ليطلع في بردة قشيبة ، فينشد لنا الشاعر هذه الرائعة الغنائية ، وعنوانها « نسمة السحر » .

● أبشر ياقلبي فقد عادت نسمة السحر من حدود سبأ حامـلة على جناحيها أبهج بشرى .

● عادت الوردة على أجنحـــة النسيم . فأطربيني بأعـاريدك ياطيور الصباح .

● نشقت الـوسنة طيب الخمرة في لمــات الفجر فاستقطرتها بلسماً لجراح قلبها .

● من يفهم لغة الزنابق فيسألها من أية طريق ستعود محبوبتي ؟

● يوم غاب ركبها اغرورقت عيناي بالدمع ، وما زالتا تجودان به حتى طنّت في مسامع قلبي اجراس القافلة المؤذنة بالعودة .

● لقد قرعت ياحافظ باب المعاصي ، ونبذت فروض الايمان ، وإنما قد غُفِر لك اليوم لأن حبيبتك عادت اليك !

• • •

وهو هـــذا حافظ الشيرازي ، شاعر الحب والخمرة ، ينام منذ ستة قرون على ضفاف نهر بكناد ، في ناووس من العقيق ، وفي حدائق ورود عاش يتغنى بها ، وتحت ظل سروة غرسها بيده وشاء ان « تبسط ظلها الهـادىء على غبار ماتبقى من شهواته !». وقيل إن القوافل في هذه الحقبة من الدهر كانت وما تزال الى يومنا تتغنى بقصائده في شعاب فارس . وصبايا شيراز وسمرقند الرائعات الجمال وعذارى كشمير « ذوات العيون البرّاقـة كالماس الأسود » يجتمعن مع الشباب الحـــالم حول قبره ، مستنزلين من الجو المهلّل للبلابل والطيوب والنوافير صوت الشاعر الذي ما ارتفع فوق غنائه غناء ، ولاعرفت فارس اعذب منه مُنشداً تغنّى بلذائذ الروح والخمرة والجمال .

كيف صار الشحرور
جزءاً من أدب نعيمه

ما إن تسلّمتُ كتاب « مرداد » هدية ً غالية ً من صديقي ميخائيل نعيمه ، حتى برز لعيني جبّارٌ من الصخر رابضٌ على غلافه ، له هيئة وحشٍ مُفرطحِ الوجـه ، ضخمِ التقطيع كرويّ المنخر ، لحيمِ الجفنِ منتفخه ، استطال إطار فمه ، وتهدّل جانباه ، واجتمع لَحْياه على ذقنٍ عريضٍ بنداحُ عن مثل لحيةٍ تحجّرتْ وعفّى الزمنُ ما كان يُستبان من شُعيراتها . أو كأنّ عصفة ً من عصفات لبنان مسحتْ نواتئها بغشاوةٍ من الصقيع .

وقد صكّ جبّار الغلاف وجهي بسحنته . فما كدتُ أقلّب بضع صفحاتٍ من الكتاب ، حتى وجدتُ ذلك الوحش قد أخذ بجامع ذهني . فعدتُ إليه أتفرّسه ، وأقلّب فيه خواطري . فلم تتنكّر لي ملامحه . بل كانت سيماؤه تقرع باب مخيلتي قرعاً متوالياً . حتى قاربتُ أن أظفر به وأخرجه من ظلمة الغموض .. فهو وحشٌ قد عرفتُه عن كثب . وكأن تمثاله منقورٌ على ظهر حافظتي ... ففي ايّ زمنٍ عرضَ لي ، وفي ايّ مكان ؟

قلتُ أقرأ « مرداد » اولاً ، فهو قد يُقرّب ما بيني وبين ذلك المسخ المتحجّر . ورحتُ اطالع المؤلّف ، فاذا هو شطران : « حكاية الكتاب » و « الكتاب » .

أمّا « الكتاب » فجلّه لمرداد يلقيها على رفاقه كـهّان الفلك . ومرداد ميخائيل نعيمه كالنبي لجبران ، وزرادشت لنيتشه ، وفوست لجوت . هو المعلّم الذي قام يبثّ على لسانه فلسفته الروحانية المرتكزة على الشعور والادراك الباطني ، وليس على المشاهدة والحسّ . فلسفة إيمان يتّكىء جانباها على الشمولية تارةً ، والصوفية طوراً ، ويُحدّثنا بها ناسكٌ صنّينَ عن الانسان الأله الذي مايزال في القمط ، وطريق التخلّص من الألم ، وعن الدينونة ، والمحبة ، واستيعاب العالم في الفهم المقدّس ، والمال ، والموت ، والمنطق والايمان وأين نمضي بعد الموت ، ولماذا تحدث الأحداث في الحالات التي تحدث فيها ، والارادة الكلّية المقدّسة ، والحنين الأكبر ، والخطيئة ونزع مآزر التين ، الى ما هنالك مما يهدف اليه الكاتب من تمجيد الروح ، وإسعاد الانسان ، ومحاولة دعم الايمان بربط المعقول بغير المعقول .

• • •

أما « حكاية الكتاب » فهي أنّ نوحاً بعد الطوفان أوصى ابنه ساماً أن يبني على جبال الآس واللبان هيكلاً يدعى الفلك ، ويختار له رجالاً لايزيد عددهم عن التسعة ، ولا ينقص عنها . وكلّما توفى الله واحداً منهم أوسل اليهم من يقوم مقامه . فلما تعاقبت على ذلك العصور ، حدث أن مات يوماً أحد الرجال التسعة ، فجاء الفلك رجلٌ يدعى مرداد ، فرفض قبوله الراهب المتقدم في الفلك وكان يدعى شمادم . ثم عاد فرضي به خادماً لرجال الفلك . فرضخ مرداد لمشيئة المتقدم ، ومضى يبث تعاليمه في الكهان حتى ملك قيادهم ، فانتقضوا على شمادم الذي كان قد غير غايات الفلك الى اهداف دنيوية باطلة . فحاول شمادم أن يقضي على عدوه ، فأسقط في يده ، وانتصر مرداد

غلية . ثم دوّن أحد الرفاق تعاليم مرداد في كتاب حفظه مرداد تحت المذبح ونصب شمادم حارساً عليه ملجوم اللسان مختوم الشفتين . وأفهمه أن رسوله سيجيء يوما ليأخذ الكتاب ويعلنه للعالم ومتى تمّ ذلك ، ينعتق شمادم من سجن الصمت ليصير حجراً ، ويصير الحجر حارساً لمدخل الكهف . وما ان أنهى مرداد كلامه حتى انفصل مع رفاقه عن الجبل ، ومشوا على ضباب الوادي متجهين الى مصدر النور حتى دخلوا الشمس .

وشاعت في السفوح أسطورة الراهب المسحور . فاستهوت مؤلّف كتاب « مرداد » الى ارتياد جبل الآس واللبان ، سالكاً الى « قمّة المذبح » دَرْباً شاقّاً يدعى « منحدر الصوان » . فوصف لنا كيف توغّل فيه بسفرةٍ قد تكون استغرقت حياة كاملةً أو حيَوات ، وفي جملةٍ من الاحداث الرمزية المستغربة . ثم أخبرنا عن لجوئه الى كهفٍ تتنفّس جدرانه صقيعاً ، فطُرد منه في حالكٍ من ظلمةٍ شعر بثقلها الأسود على أهدابه ، ثم أحسّ كأن الجبل هرب بغتةً من تحت قدميه ، فأهوى فاقدَ الشعور ليستيقظ بعد ذلك في الكهف وقد أكبّ عليه الراهب شمادم وأعطاه كتاب « مرداد » ليذيعه على الناس . ثمّ اختفى الراهب ، فأطلّ الكاتب من فجوة الكهف فاذا به وجهاً لوجه أمام حجرٍ كبيرٍ لم يعهد وجوده من قبلُ قائمٍ على شفير الهاوية « يشبه وحشاً جاثماً يكاد يكون رأسه رأس إنسان ، وملامحه خشنة صلبة ، أبرزها ذقنٌ عريضٌ مرتفع ، وفكّان قويّان متماسكان ، وشفتان كأنهما مختومتان بخاتم الصمت الرهيب ، وعينان ذاهلتان وشاخصتان الى الشمال الفارغ القاسي »

. . .

وكانت هذه الاطلالة على الراهب شمادم المتحجّر عند مدخل الكهف كافية ليتجلو لي الشبهات عن جبّار الغلاف . فاذا بي أشرد في غيابة الماضي واذا

بعينيّ تنفضان غشاوة ستّ عشرة سنة خلت. لأن لذلك الوحش علوقاً بذكرى. أعدّها من أحبّ ما يختزنه قلبي من ذكريات .

في صبـــاحٍ من شهر نوّار سنة ١٩٣٧ - إذ كنت مصطافاً في وطني لبنان - انحدرتُ ورفاقي من نبع صنين مشياً على الأقدام نؤمّ موقع الشخروب للاجتماع بناسكه ميخائيل نعيمة . فلقيَنا بالترحاب وهو الى جانب عوسجةٍ على حافّة الطريق جعل منها صندوقاً لبريده. ثم سرنا معاً الى منزلٍ قرويٍّ مبنيٍّ بالحجر القاتم ، تتوسّط صَدْرَهُ حنيّةٌ من الحجر المعقود ، وعلى سطحه خيمة من النسيج كانت مخدعاً لميخائيل . وما ان شاطَرَنا مضيفنا طعام صباحه من الخبز والعسل وقُراطة اللبن ، حتى هببنا ننفض وإيّاه المكان نتعرف الى نواحيه ونزورُ الكهفين اللذين يقضي فيها أيامه بمعزل عن الناس مستنزلاً الالهام ومُكبّاً على الانشاء والتعمير .

وما هو الا شوط جزناهُ حتى برزتْ لنا كراتٌ من الصخر بينهـــا مدخل كأنما انفرجتْ عن جانبيه ستارتان من الصوّان . فمـا ان تفقدنا داخله وانكفأْنا على الاعقـــاب لنطلّ من فَجْوَتِهِ حتى مثَلَ لنا خلالها شكلُ جبّارٍ من الصخر رابضٍ قبالة مدخل الكهف ، وهو جبّار « الغلاف » ، فأقبلنا عليهِ عهدئذٍ ، ميخائيل وأنا ، فتَسلّقنا منكِبَهُ العالي ، وقَضْقَضنا بنعالنا قنّةَ هامتِهِ ثم اقتعدْنا يافوخَهُ مدلِين ارجلنا على منبت أنفهِ .

وانطلقنا بعد لأيٍ الى الكهف الذي أنشأ فيه ميخائيل كتابه عن جبران فاذا بنا نواجه صخرةً مستطيلةً كأنها ناووس ضخم لجبّار عظيم ، ونلج تحتهـا كهفاً في سقفه كوّةٌ برز من صخرها شكل جانبيٌ خرطتْهُ الطبيعة لوجـــه بشريٍ تتماوج من خلفه زرقة السماء .



الجبار الرابض على مدخل الكهف

وما كنت أعلم في ذلك العهد أنّ نعيمة سيجعل يوماً من ذلك المكان، مسرحاً لرائعةٍ من روائع خياله ، وينفخ في تلك الشخوص الصخريّة الماثلة حول منزله روحاً من روحه ، ويكسو كلاً منها لبوساً من لبوس حياته ، ويخلع عليها عظةً من عظاته البيّنات . أفلا تكون منعرجاتُ وادي الجاجم المؤدّية الى الشخروب منحدرَ الصوان ، والمنزل المبنيُّ بالحجر القاتم هيكلَ الفُلك ؟ وخيمةُ النسيج المنصوبةُ على سطحه ألا تكون شراعاً ؟ والجبّارُ الرابضُ على باب الكهف أما هو شمادم الحسُود الخاتل وقد مُسِخَ وحشاً من الصخر ؟ والصخرة المستطيلة أليست هي قمّة المذبح ؟ والوجه المطلُّ من كوّة السقف في ألقٍ من زرقة السماء ألا يكون وجهَ جبران او وجهَ مرداد ؟

أسألك يا أخي ميخائيل عفواً . فقد أكون — على ما بيننا من بُعُد الشقّة — أفشيتُ للناس سرّاً من أسرار كتاب « مرداد » ، كنتَ تودّ ان ينجلي للناس بعد ان ننحدر جميعنا عن سطح الأرض الى قلبها ، حتى اذا جَعَلَ عشّاقُ ادبك من الشخروب مزاراً ، ادركوا ان ميخائيل نعيمة في كتابه مرداد ، لم يَستولدْ خيالهُ الفُلْكَ وقمّة المذبح ومنحدرَ الصوّان وشمادم ومردادَ بل كانت تلك الامكنة والشخوص ملء عينه وخَلَدِه ، فاستهدفها لتأمّلاته ، ونصب منها لنفسه سُمّاراً في وحدته ، ورفاقاً له في منسكه ، وجمّع افلاذها كما يُجمّع النبيُّ كلمات آيته ، وجعل منها ومن الشخروب جزءاً من أدبه لا يتجزّأ ، ثم راح يجلو جميعها للعيون متعةً ، وللنفوس عبرة ونَدّهَ الناسَ على لسانها بما اطمأنتْ اليه مداركهُ من روحانيّة ، وأحست به مشاعرهُ وروحُه من خلجاتٍ ونزواتٍ ترفع ابناءَ التراب الى مصافّ الارباب .

بلقيس ملكة سبأ

استناداً الى أخبار الكتب
المقدّسة ورواية بعض المؤرخين ،
والى الأساطير التي ذكرها بعض مؤلفي
العرب والحبشة .

بلقيس رسالة جمال وحب ومغامرة حملتها الينا العصور على أجنحة الأساطير ، فنشرتها لنا حفائر الأرض في مجاهل اليمن ، وحدثنا عنها فم التراب في عاصمة سبأ القديمة ، حيث ارتفعت لبلقيس الرايات منذ أقدمت على اغتيال ابن عمها الملك هدهاد بن شرحبيل ومنذ أن طوت الصحراء العربية للقاء الملك سليمان بن داود ، حتى هذا الزمن الذي قام فيه بعضهم يطوون العصور ليزيحوا عن مُلْك بلقيس نقابه ويُشرعوا لِسِفْر عظائمه دفّتيه .

منذ ثلاثين قرناً نُودي بهدهاد بن شرحبيل ملكاً على اليمن بعد موت أبيه . فما إن تسلّم زمام الملك حتى أساء السياسة واتبع طرق الضلال . فعاش منهمكاً في الفسق ، متدنّياً في مزلق الفجور فما يسمع ببنتٍ ذات جمال إلا أحضرها وانتهك حرمتها . وظلّ ذلك شأنــــه حتى دفعه الاستهتار بالحرمات أن جاء بنت عمه بلقيس في قصرها ، وكانت قد علمت بمقاصده ، فأعدّتْ له رجلين قتلاه ثم أحضرت كبراء المملكة وقامتْ فيهم خطيبة . فندّدت بأعمال ابن عمّها عاهل اليمن ، وأنكرت عليهم خنوعهم واستكانتهم وتراخيهم عن حماية أعراضهم . وفاجأتهم بخبر اغتيالها الملك ضنّاً باليمنيين من من أن ينالهم ضيمٌ أو مهانةٌ . فأكبروا صنيعها وأجلّوا قدرها . وعلى الرغم من أنفـــة العرب تمليك النساء ، أقرّوا أن ينتخبوها ملكة عليهم ، جزاء ما أبدته من عزّةٍ وشممٍ .

• • •

في ذلك الزمن ، كان سليمان بن داود في ذروة أبهة الملك ، وعلى أعلى قمم المجد ، وكان إذا انطلق في مسير قام بين يديه الإنس والجنّ والشياطين ، ثم يرسل الى الطير فتظلّهم من فوقهم . ثم يرسل الى الريح فتحملهم وهو قاعدٌ على سريره ، والناس على الكراسي . فتسير بهم غدوّها شهر ، ورواحها شهر .

وبينما سليمان يسير اذ نزل مفازةً ، فسأل عن بُعْدِ الماء فقال الانس : لا ندري ، ومثلهم قال الجنّ والشياطين . فغضب سليمان فقال : لا أبرح حتى أعلم بُعْدَ مسافةالماء هنا فقالت له الشياطين ياوسول الله لاتغضب، فان يك شيء يُعْلَمُ فالهدهد يعلمه . فقال سليمان : عليّ بالهدهد . فلمّا لم يجدوا الهدهد بين رؤساء الطيور ، غضب سليمان وقال : مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذّبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّهُ او ليأتيني بعذرٍ مبين .

وحدث أن الهدهد كان قد شرد في المسيرة ، فمرّ على قصر بلقيس فرأى لهـا بستاناً خلف قصرها ، فمال الى الخضرة فوقع عليها فاذا هو بهدهدٍ لها في البستان . فقال له : ماتصنع هنا وأين أنت عن سليمان ؟ فقال له هدهد بلقيس ومَنْ سليمان : فقال بعث الله رجلا يقال له سليمان رسولاً وسخّر له الريح والجنّ والانس والطير . فقال له هدهدُ بلقيس إن هذا العجب ، واعجب منه ان كثرة هؤلاء القوم تملكهم امرأة أوتيت من كل شيء . ولها عرش عظيم وقد جعلوا الشكر لله أن يسجدوا للشمس من دون الله .

فلمّا أتى الهدهد سليمان ، قال له ابن داود ما غيّبك عن مسيري قال : أحطتُ بما لم تحط بهِ ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . وأخبره عن بلقيس ـ

فشاء سليمان أن يتوثّق من الأمر ، فحمّل الهدهد كتاباً وبعث به الى بلقيس ، فوافقها وهي في قصرها ، فألقاه اليها ، فسقط في حجرها واعتزمت بلقيس زيارة سليمان . فأمرت بسرير مُلكها ، فأخرج وكان من ذهب مفصّص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، فجُعل في ستة أبيات بعضها في بعض . ثم أقفلت الأبواب ، وقالت لمن خلّفت على سلطانها : احتفظْ بما قبلك ، وسرير ملكي فلا يخلص اليه أحد ولا يرينّه حتى آتيك .

ثم شخصت الى سليمان في إثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن ، تحت يدي كلّ قَيْلٍ منهم ألوفٌ كثيرة ، ومعها جِمالٌ مُوقرةٌ أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارةً كريمة .

فجعل سليمان يبعث الجنّ فيأتونه بسيرها ، حتى اذا دنت جمع مَن عنده من الجنّ والانس ممّن تحت يديه ، فقال : يا أيّها الملأُ أيُّكمْ يأتيني بعرشها قبل أن تأتيني ؟ فقال عفريتٌ من الجنّ : أنا آتيك بـه قبل أن تقوم من مقامك الذي أنت فيه الى الحين الذي تقوم الى غـدائك . قال سليمان : من يأتيني به قبل ذلك ؟ قال الذي عنده علمٌ من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك . فنظر اليه سليمان ، فلما وقع كلامه ردّ سليمان بصره على العرش فرأى سريرها قد خرج ونبـع من تحت كرسيّه .

فوضعوا لها عرشها . فلما جاءت قعدت الى سليمان . فقيل لها : أهكذا عرشك ؟ فقالت : كأنـــه هو ! لقد تركته في حصوني ، وتركت الجنود محيطةً به فكيف جيء بهذا يا سليمان ؟...

ثمّ أردفت تقول : أريد أن أسألك عن شيء فأخبرنيه . قال : سلي ! قالت أخبرني عن ماء رواء ، لا من أرض ولا من سماء !

فاستوحى سليمان شياطينه ، بعد أن أعجز الجوابُ الانسَ والجنَ .
فقالت له الشياطين : مر الخيل فلْتَجْرِ ، ثم تملأُ الآنيةَ من عَرَقِها . فقال سليمان لبلقيس : عرقُ الخيل ! قالت : صدقت ! وكلمته بأحاجيٌ فسّرها ولم يَخْفَ عليه شيءٌ منها . فأعجبت بحكمته . ورأت البيت الذي بناه وطعام موائده ومسكن عبيده وقيام خدامهِ ولباسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في البيت ، فقالت للملك : حقاً كان الكلام الذي بلغني في أرضي عن أقوالك وعن حكمتك . وأعطت الملك مئة وعشرين قنطار ذهبٍ وأطياباً كثيرةً وحجارةً كريمة . ولم يرد بعد في الكثرة مثل ذلك الطيب الذي وهبتهُ ملكة سبأ للملك سليمان ....

• • •

وبلغ سليمان أن بلقيس كانت شَعْراءَ الساقين ، وأن لها قدمين كأظلاف المَعْز . فأمر الشياطين أن يبنوا له بنياناً ليرى ذلك منها . فبنوا له صرحاً من قواريرَ أخضرَ . وجعلوا له طوابيقَ من قواريرَ كأنه الماء وجعلوا في باطن الطوابيق كل شيءٍ يكون من الدواب في البحر من السمك وغيره . ثم أطبقوه وألقي لسليمان كرسي في أقصى الصرح ، فقعد عليه وجيءَ ببلقيس فلما دخلت رأتْ صورة السمك ومايكون في الماءِ من الدواب ، فحسبته ماءً ، وكشفتْ عن ساقيها لتدخل . فأدرك سليمان فوراً أن ما بلغ مسامعه لم يكن الا سعايات الوشاة ، فقد فوجيء من ملكة سبأ برؤية ساقين بضتين ، وقدّمين رائعتين هما في غاية الفتنة والكمال . وتقول الأساطير الحبشية إن جمال بلقيس دلهَ سليمان وألهبَ صدره وجداً . فعمد إلى تقديم طعامٍ أفرط الطهاةُ في تمليحه وتتبيله

فما إن أحسّت ملكة سبأ ، وهي في مخدعها ، بالظمأ المحرق يتأكلها في غمرة العتمة حتى انطلقت تبحث عن الماء . ولم يكن ثمّة إلا جرّة واحده من فضة ، حظيتْ بها في المخدع الذع كان ينتظرها فيه سليمان ...

وهكذا وُلِد من بلقيس وسليمان منليك الأول ، جدُّ السلالة الملكيّة التي سيطرت على مقدّرات الحبشة عبرَ عشرات القرون . أفلا يكون سليمان قد عنى بلقيس ، ملكة سبأ ، بقوله في نشيد الأنشاد :

جميلةٌ أنتِ ياخليلتي . جميلةٌ أنتِ ، وعيناك كحمامتين من وراء نقابك وشعرك كقطيع معزٍ يبدو من جبل جلعاد .

أسنانك كقطيعٍ مجزوزٍ قــد طلع من الاغتسال كلُّ واحدة منه مُتْئِمٌ وما فيه عاقر .

شفتاكِ كسمطٍ من القرمز ونطقُكِ عذْب .

خدّاكِ كفلقة رُمّانــة من وراءِ نقابكِ .

ثدياكِ كخشفَيْ ظبيةٍ تَوأمَين يرعيان بين السُّوسن .

عبقريـة ابن سينا

بمناسبة مرور الف عام على
مولد الرئيس ابن سينا .

عبقرية ابن سينا

تنتظر الشعوب العربية مرور العام الألف على مولد الرئيس إبن سينا لتفي بالتكريم حق من أنجبته ديار العرب ، ويعد أبناء فارس العدة وقد هبوا من جنبات إيران للاحتفال بذكرى سليل الفرس . ويتطلع الغرب مترقباً حلول المهرجان ليخشع بإجلال أمام معلم الغرب .

رجل عاش سبعاً وخمسين عاماً ، فلقب بالشيخ وما وطيء عتبة الشيخوخة . مات بعده عشرات الأجيال من الناس، ودار به قبره حول الشمس ألف دورة ، وما برحت أمتان من أعرق الشعوب حضارة تتنازعان حول قبره ذيل فخاره ، فتتهرأ الأيدي ولا تتهرأ نسيلة من ذيل ذلك الفخار .

ولئن نمت فارس أجداده إليها ، فالجزيرة العربية هي التي أنجبته وأنجبت آباءه ، وهو الذي في بيئة عربية سطع نجمه وانقادت له المعرفة وأنجبت من روحه الحكمة ، وباللغة العربية لا بسواها تجليبت عبقريته ، فطبقت شهرته الخافقين وهو مايزال فتى لم يجاوز السادسة عشرة من عمره .

وابن سينا هو أشهر من عرفه التاريخ من أطباء العرب ، وواحد من أظهر علماء الأرض وعباقرتها في العلوم الطبيعية والطب والفلسفة . جعل الطب صولجان الأمارة في كفه على مدى العصور فسمي أمير الأطباء . وتنافست الامم في فخر الاحتفاظ بمخطوط من نتاجه ، وظل كتابه « القانون » طيلة ستة قرون أساساً عالميا ومرجعاً خطيراً لتدريس الطب في كل جامعات فرنسا وإيطاليا ، فراحوا يوالون طبعه حتى القرن الثامن عشر ، وظلت جامعة «مونبليه» تدرس

تعاليمه في قاعاتهـــا وتطرحها للجدل فيها ، الى ماقبل منتصف القرن الماضي بسنوات .

ولكن للعباقرة مضطهدهم في كلّ عصر ومصر . وتحت كلّ راية وفي كنف كلّ دين . فان الرئيس ابن سينا ، على وفرة عزه وعريض جاهه ولصوقه بالأمير نوح بن منصور ، أمير بخارى وتقلده وزارة أمير همذان ، لم يعدم أناساً كادوا له وتآمروا عليه . فأسره الجند وهو وزير وهمّوا بقتله ، فأنقذه الأمير من الهلاك ، ثم شُرِّد وعاد الى موطنه ، وسجن ثم فر من سجنه . حتى انه أتهم بجريمة نكراء وهي إحراقه مكتبة الأمير نوح رغبة منه في ان يتفرد، على زعمهم بما ضمنته من الحكمة ، وخشية ان ينتفع غيره بما حوته من الفوائد، فيستأثر هو بذلك كله ويستند اليه في مايدبج من أبحاث وينشيء من تآليف .

بيد ان لنا في ذلك رأياً خاصاً ، ندحض به على ضوء التاريخ تلك الفرية . فان الأمير نوحاً استقدم إليه ابن سينا لعيادته في مرض ألمّ به ، وابن سينا عهدئذ في السادسة او السابعة عشرة من عمره وجعل تحت امرته مكتبته الحافلة بالمؤلفات النفيسة . ولما كان ابن سينا قد ولد عام ٣٧٠ هجرية ، ووصل بخارى وهو في السابعة عشرة من سنه ، فيكون وصوله إليها عام ٣٨٧هـ ، وهو العام الذي مات فيه نوح بن منصور . وتكون المكتبة قد أحرقت قبل موت الامير وبعد وصول ابن سينا بزمن قصير ، فلا يعقل أن يكون قد طالع فيها إلا مدى شهور معدودة أو ما لايجاوز العام الواحد ، وليست الشهور بالزمن الوافي ليستوعب فيها المرء مافي خزائن الكتب من علوم فيزدخرها في صدره ويعيها في حافظته ، ثم يحرقها بعد ذلك ليتفرد بما وعاه منها ، ويعود فينشيء في

حياته مائة مؤلف يستحيل ان يكون قد استمدها أو استمد بعضها من خزانة ما كاد يُفتح له بابها حتى التهمتها النيران وحال مافيها الى رماد .

ولقد عيب على إبن سينا انصبابه على حياة الترف واللهو وقضاؤه الليالي الطوال مع أحبابه بين العزف والغناء ، يلتهم المشهيات على الموائد الأنيقة ، ويقتطف من شجرة الحياة مالذ وحلا ، مما دفع المؤرخ « غوستاف لوبون » الى القول بان اعتكاف الرئيس على التآليف ، وانغماسه في الملذات ، قضيا عليه وقصرا حبل عمره فلم تَهْدِهِ فلسفته الى الحكمة ، ولا قاده علمه واختباره الى موارد العافية .

فليعب العائبون على ابن سينا ماأرادوا ، فان عبقريته كانت على الناس نعمة وسلامة . وان الضالين هم أولئك الذين اذا زاغوا عن السبيل السوي جرفوا سواهم الى التهلكة ومغبوط من اذا فاته إنقاذ نفسه سعى الى إنقاذ سواه من أبناء الحياة .



من أدب الهنـد

- ١ -

شاكنتلا

- من أدب الهند القديم -

تلخيص مسرحية الشاعر الهندي كاليداسا ألفها باللغة السنسكريتية في القرن الأول للميلاد وهي تعدّ من روائع الأدب العالمي ، وقد قال عنها الشاعر الجرماني غوت . اذا اشتقت زهر الربيع واشتهيت ثمار الخريف ، ونشدت الطمأنينة والخلابة والنشوة ، وشئت أن تعرف في لفظة واحدة ما هي السماء والأرض ،قلت لك: شاكنتلا

عنـــد سفوح جبال هملايا ، وعلى ضفاف نهر « ما لاني » حيث قامت مناسك البراهمة ، أوقف الملك « دوكمنتا » عربتهُ ، وقـد أوتر قوسهُ ليرمي ظبياً نفر مذعوراً ، بعـد أن ألقى من فيه بقية أعشاب كان يلقفها بأمان ، فاذا بأحد البراهمة يتصدّى للملك من بين العوسج ناشداً إياه أن لا يطلق سهمه فالظبي ربّاه النسّاك ، وقد تفعل به النبلة فعل اللهبة بالزهرة ، والأجدر بالملك وقد نصبّه الله سلطاناً على مخلوقاته ، أن يحـدب على الضعفاء ، لا أن يودي بهم ويهلكهم .

فيردّ الملك الشاب سهمه الى جعبته ، ويعلم انه في جوار صومعة الحكيم « كنوى » ، وان الحكيم قـــد رحل في مهمّة مقدسة ، ووكل الى ابنته « شاكنتـّلا » امر العناية بأضيافه . ويتجه الملك الى المنسك فيرى في بستانـه تلك العذراء الفتانة ترفع دلاءَ الماء وتعنى بِرَيّ الأغراس ، ومن حولهـــا صويحباتها . فيعجب أن يكون ابوها قد عهد الى من كان مثلها بهـذا العمل الشاقّ ، ففاق في جنونه جنون من يودّ ان يقطع جذع السنديانة بحدّ ورقـةٍ من اوراق زهرة اللوتس .

ويختبىء الملك وراء إحـدى الأشجار مُصغياً الى شاكنتـّلا ، وهي تندّد برفيقتها لأنها حين ألبَستْها شدّت على صدرها بُرْدَتَها ، فأصبحت لا تطيق التنفّس ، فتجيبها هـــذه انها بريئة ، والذنب ذنب الشباب الذي جعل نهديها يربوان ويشرئبان ..

ويـبرز إليهنّ الملك كغريب ضـلّ الطريق ، فيخفق لمرآهُ قلبُ

شاكنتلا ، ويتجاذبون أطراف الحـديث ، فتعلم بنت الحكيم « كنوى » بادىء بدء أن الغريب هو رسول الملك «دوكمنتا» أوفده الى المنسك ليستطلع حال البراهمة الأبرار . أمـا الملك المتنكّر فيعرف ان شاكنتلا ليست بابنـة الحكيم كنوى الزاهد المتقشّف ، بـل وليدة الملك الصالح قوسيكا ، فتن بحورية من الجنة جعلتها الآلهة في طريقه ، فولدت منه شاكنتلا ، وعادت الى السماء ، تاركةً ابنتها في عهدة ذلك الناسك .

فيدرك الملك ان اللهب المتقد في عيني شاكنتلا ، والسحر العجيب المتألق في لحاظها ، ليسا من هذا العالم ، بل هما نتاج الجنة ، وما انبثقا الا من قبلة حورية من حوريات الخـلود ..

وينكشف أمر الملك حين يقبل أعيانه من القنص ، فيحيونه التحية الملكية ، ويخبرونه أن فيلاً هائجاً ظهر في الغابة . ويكون التعب قد نال من شاكنتلا منالاً . فتندى زهرة الكرز المدلاة من أذنهـا ، ويبقى للحسناء من القوة مايكفي لترد به شعرها المبعثر وتنطلق الى خبائها في المنسك . أمـا الملك فيندفع مع أعوانه في طلب الفيل الثائر ، وقد شعر أن جسمه هو الذي انطلق الى الامام ، اما روحه فقد بقيت خلفه ، كهداب الراية الحريرية التي يولجه بها حاملها الريح ..

ويقضي الملك في ضيافة البراهمة أياماً ، وقد انساه قرب شاكنتلا شؤون مملكته ، حتى اذا تدله كل منهما بحب الآخر ، تحولت غابة التقشف والزهد الى بستان للهوى والصبابة ...

ويتأثر الملك يوماً ضفة النهر ، فيبصر زهوراً تتحلب دماؤها ، كأن يداً انجزت في ذلك الحين قطفها ، فيعلم أن شاكنتلا سلكت ذلك الطريق ،

فيتقفى أثرها ، ويحظى بها تحت الصفصاف بين صويحباتها . وقـد أسكتتهن لتتم نظم أبيات تعدها لحبيبها الملك . فيتبين في خفق أهدابها وزن الشعر الذي توقعه .. وتخلي الفتيات لهما المكان ، فيكاشفها بحبه ، ويقبل عليها مضطجعة بين الأزهار ، فتزمع بالهرب منه ، فيحذرها من مواجهة الشمس المحرقة .. لأن رداءها الشفاف مبتل بعطر الزهور ..

وتطلب إليه ألا ينساها بعد عودته الى قصره ، فيجيبهـا : وهل يفارق ظل الدوحة جذعها مهما استطال عند غروب الشمس ؟

ويحاول تقبيلها فتصدف عنه ، وتعده أن تكون له بعد عودة أبيها ، فيسألها تنشق لماثها ، فقد تقنع النحلة بتنشق عطر الزهرة ، فتقول له : ومـا تفعل النحلة بالزهرة عدا تنشق عطرهـــا ؟ فيجيبها بقبلة مستطيلة يطبعها على شفتها ...

ويقضي الملك دوكمنتا الى جانب محبوبته أياماً سعيدة،ثم يعود الى قصره بعد أن تعده باللحاق به عند عودة الحكيم كنوى . فيترك في يدها خاتماً عليه اسمه . ويمر بالصومعة ناسك غريب . فتغفل شاكنتلا القيام بفرض ضيافتــه ، فيسخط لاعناً وينذرها قائلا : « ان الرجل الذي شغلك حبه عن إكرامي ، هو بعد اليوم لايذكرك إلا كما يذكر السكران عربـــدته بعد أن يصحو من غيبوبة سكره ...

فتجزع صويحباتها ويلحقن بالناسك ليستمحنه عذراً ، فيجيبهن قائلا : « إن ماأنذرت به لامنجاة من وقوعه ، إلا اذا أبرزت تلك الفتاة لحبيبها حلية قد أهداها اليها » .

ويعود الحكيم كنوى من رحلته ، ويدخل الهيكل ، فيسمع صوتاً من السماء يناديه ان ابنته حامل ، وانها ستلد ملكاً يكون بهناء العالم! فيعانق إبنته ويباركها ويجهز لها من أعوانه موكباً يرافقها الى قصر زوجها الملك. أما صويحباتها فيعددنها للزفاف ، ويمنطقن خصرها بالأزهار ، ويذكرنهـا أن تبرز خاتما الملك اذا تناساها ، على ماتكهن به الناسك ، ويقبل أحد البراهمة وفي يده وشاح كضوء القمر ، أخبرهم انه هبط من السماء على أغصان الغابة ، كأن الحور خلعته وشاحاً لشاكونتلا يوم عرسها ، فيقدمه اليها ، ويتحرك الموكب مقلاً إبنة الحكيم كنوى الى قصر زوجها مزودة بنصائح أبيها وببركات البراهمة وبسمات صويحباتها ودموعهن السخية ، واذا بالظباء تكف عن رعي العشب ، شاخصة اليها بأبصارها ، وبالطواويس تلزم الهدوء وقد سبلت أجنحتها ، واذا بالأوراق تتساقط وكأنها دموع الأشجار.

ويدخل البراهمة القصر فيبلغون العـاهل العظيم رسالة الحكيم كنوى ورغبته في أن يستقبل الملك بمجالي الاكرام زوجته الفتانة ، الحاملة في أحشائها ثمرة حبه ! أما الملك فيحار في أمره ، ويسأل في دهشة عن الزوجة التي يعنونها ، فيعجب البراهمة لتجاهله ، ويقرعونه لعدم وفائه بالوعد ونكثه بالعهد فيغضب العاهل ، وتتقدم من شاكنتلا حاضنتهـا العجوز ، فتنزع عن وجهها الحجاب طالبة إليها ألا تحمر خجلاً . . . كي يعرفها الملك !

فيدهش الملك جمالها الباهر ، ولكنه يسقط في يـده ، ولا يذكر أنه رآها قبل ذلك اليوم. فتذكره شاكنتلا بخلوتهما تحت أشجار المنسك ، واتحادهما ذلك الاتحاد المقدس بعد أن تبادلا أحر القبل ، وختماعهودهما بالأيمان المغلظة . . . ولكن الملك يسكتها وقد هاج هائجه ، ويتهمها بالتآمر على جلالته ، والعمل على

تقويض أركان ملكه ، وهو هو العامل الأكبر على توطيد دعائم الصلاح في أرجاء مملكته . فتقابل شاكنتلا سخطه بما هو منه أشد ، وتثور كاللبؤة الجريحة صارخة في وجهه انها ستفتح عينيه المغمضتين ، وتمد يدها لتريه الخاتم الذي قدمه اليها عند توديعها ، ولكنها تتراجع مذعورة لأنها لا تجده في كفها ...

وتذكر لها حاضنتها أنها قد تكون أضاعته عند إغتسالها في الغدير المقدس !

ويرتئي كاهن القصر أن يتعهد هو نفسه أمر شاكنتلا الى أن تلد طفلها، فاذا كان إبناً حقيقياً للملك دوكمنتا ظهرت في باطن كفه الدائرة المقدسة، وهي علامة المُلْك في سلالة ملوك الهند .

ويغادر البراهمة القصر ، وترفع شاكنتلا ذراعيها فتنقضُّ عليها نار عظيمة ، لها هيئة انسان ، فتختطفها وتنطلق بها الى الفضاء على مرأى من البراهمة وأعوان الملك . .

ويحمل الملك رأسه بين يديه ، ويُجهد نفسه في تذكُّر تلك الفتاة الرائعة الجمال ، فلا يذكر عنها شيئاً ولكنه يحسّ انه قد يكون يوماً أحبها لان قلبه يخفق لها خفوقاً شديداً .

وتمر الأيام فيقبض الجند على صائد أسماك يحاول أن يبيع خاتماً عليه اسم الملك ، فيدّعي انهُ وجدهُ في جوف سمكة اصطادها ، ويحمَل الخاتم الى العاهل . فما أن يراهُ حتى يستعيد ذاكرته المفقودة ، ويعلم أنه قد تزوّج ابنة الحكيم كنوى سراً . فيأمر بمنع مهرجانات الربيع ، ويبلغ منه القنوط مبلغاً عظيما ، فيهذي ويهرف ، ويخلط بين أسماء أعوانه ونسائه ، ويقضي أيامهُ في حدادٍ دائم ، لا حديث له الا شاكنتلا ، تلك الحبيبة التي طردها من

قصره ، بعد أن سلمته روحها وهي من ثلج ، وجسدها وهو من نار ...

ووقفت ذات يوم عربة عند باب القصر ، ونزل منها سائقها رسول الإله أندرا ، فبلغ الملك رغبة الآلهة في أن يحمل على الأزوريين الأشرار ، فيبطش بأرواحهم الخبيثة ، ويبددهم كما تبدد الأنوار الظلمة . فيحمد الآلهة على الشرف العظيم الذي خصته به ، ويتجه في عربة عظيم الآلهة الى الأزوريين فيمزقهم شر ممزق . وبينما هو عائد الى مملكته طاوياً بعربته الغيوم يرى الأرض من علٍ كبساطٍ صغير مده طفل بين الجبال ، أو كأن الغابات طاقات خضر ، والأنهار خيوط من الفضة ، حتى اذا تبين جبلا بين بحرين ، أخبره رسول الآلهة أنه جبل يقطن فيه موسيقيو السماء . فيهبطان اليه ، ويرى الأرض عند هبوطه ، كأنها ترتفع اليه بسرعةٍ مخيفة لتقذف به كما يقذف الدف بالكرة وتقف بهما العربة فجأة ، فلا يسمع لعجلاتها صرير . فاذا بهما يطأان الثرى ، ويتجولان في المكان ، واذا بـه يبصر وراء الأدغال غلاماً صغيراً ممسكاً بشبل يود ان يفتح شدقيه ليعد أسنانه ، فتمنعه حاضنته فيأبى ، فتهدده باللبوة فلا يخشاها . فيدرك الملك أن ذلك الصبي إن هو إلا شرارة قد تصير يوماً ناراً عظيمة . وتعود المرأة الى ملاطفة الغـلام فتعده أن تعطيه شيئاً اذا كف عن تعذيب الشبل ، فيمد يده اليها طالبا ذلك الشيء ، ويرى الملك عند ذلك في باطن كفه المفتوحة الدائرة المقدسة التي هي سيمة الملك في سلالة آبائه وأجداده . فيطلب اليه في تؤدة أن يقلع عن مغالظة الشبل ، ثم يحتضنه احتضان الاب لابنه . فيبتسم له الصبي عن أسنانٍ كأنها حبات الأرز ، وتسقط أثناء العناق من معصم الطفل تميمته ، فيهم الملك بالتقاطها فتصيح به المرأة ألا يفعل ، ولكنه يكون قد قبض عليها بيده ، فتصيح خائفة

مذعورة وقد شخصت بصرها وجمدت دون حراك ، ثم هدأ روعها كمن توقع كارثة لم تحدث ، وتروي له أن التميمة التي هذبه الإله كسيابا ، وضعها في معصم الغلام في عيد مولده لتكون له حرزاً ، بعد أن حظر على الجميع مسها لأنها مسحورة ، فلو لمسها أحد غير الصبي أو غير والديه لانقلبت الى سامة تميت للحال من تكون في يده ...

وما تكاد الحاضنة تنهي حديثها ، حتى تخف لاخبار والدة الطفل عن حادث التميمة العجيب ، وتقبل شا كنتلا لترى الرجل الغريب الذي لم يرده لمس التميمة ، وما أن تقترب وملء عينيها بريق الأمل ، حتى ترى الملك وملء عينيه الدموع وبين ذراعيه طفلها المعبود . فيتعانق الحبيبان ، ويظهر الاله كسيابا ، فيقول الملك . لا تحسبن نفسك مذنباً ، فكل ما حدث هو وحي الشيطان درواسا ! ضم الى قلبك ابنك الذي وهبتك إياه شا كنتلا ، فان راياته ستخفق على جزر العالم السبع ، وستجد له شعوب الأرض معفرة جباهها بالتراب ! »

وتهمس شا كنتلا في اذن حبيبها الملك قائلة :

« في هذه الساعة تتفتح زهرات اللوتس على ضفاف نهر مالاني ، فاحملني على ذراعيك ، ايها الحبيب ، وأرجعني الى الأرض ! »

عينا ليلى

من أدب الهند الجديد

إحدى روائع القصص العالمية الحديثة

معرّبة عن الكاتب الهندي ك . ط . محمّد

أنا أهزولة الناس . فما أمرّ بالحيّ حتى تستقبلني قهقهات الساخرين ، وتتزايد خلفي بعد أن أوليهم ظهري . لقد تناقلوا عني الحكايات المضحكة . وما أنا بحاجة الى سماع أقاويلهم التافهة حتى أدرك ما يجدونه فيّ من مضحك ، لانني أدرى منهم باسباب ذلك .

أول ما يضحكهم مني أنني احببت كما يحبّ كل انسان ... وان كل مصيبتي هي في تزوّجي المرأة التي أحببتها . لذلك تراهم لا يفتأون عن ترديدما جرى لي من حوادث غريبة في أثناء حبي وزواجي . ولو استهجنت منهم ذلك وسألتهم عن الباعث على الهزء في أمرٍ عاديّ كهـــذا لأحالوك عليّ كيما ترى وجهي . أما والأمر كذلك فدعني أقدّم إليـك نفسي بنفسي لتدرك ما هي الفوارق التي تفرقني عن سائر الناس . وإنْ لم اكن في الحقيقة غير كائن كسواي من مخلوقات الله .

انا قصير القامة ، أسودُ كالدّخَن الأدكن . ذراعاي بالغتان حــــداً عظيماً من الطول . ورأسي كبير ضخم كأنه ميسم لمنظري الدميم ، او خاتم لهيئتي الممسوخة . عيناي المستديرتان غائرتان في محجريهما . وكأن الله أرادني فوق كل هـــذا أفطس الانف . ضيق الجبهة ، ذا شدقٍ مستطيل مشقوق حتى أذنيّ المتهدّلتين على جانبيَ رامي ، وبشَرةٍ مرفوشة بأثار الجُدري . وقد سقطتُ في حداثتي سقطة صيّرتني أعرج أميل على جانبي الأيمن . وخلاصة القول انّ الطبيعة قد نصبتني تمثالاً للدمامة والشناعة .

• • •

ويظهر ان من كان يراني للمرة الاولى يحسبني قرداً من فصيلة الغوري.

ولكن ما كان يضحك الناس بالاكثر ان المخلوق الذي كانوا يحسبونه قرداً لم يكن غير مخلوق آدمي مثلهم. وقد سمعت يوماً احد المارة يقول لرفيقه: « ان هذا الرجل يجعلني افكر بأحدب نوتردام ». مع أنني لم اكن أحدب.. ولكنني لم أفه ببنت شفة، لأن ما يفتكره الناس بي لا يهمني. وقد علمتني سخريتهم أموراً كثيرة.

لم ألتق يوماً فتيات جميلات إلا تمنيت ان تسيخ قدماي في الارض لتبتلعني الارض. فقد كنّ يشحن عني بوجوههن، كما يفعل البراهمة لدى رؤيتهم طيراً يتشاءمون بها. والذي كان يزيد تعاستي ان الآدميين أمثالي لا ينظرون اليّ كواحد منهم، ولا يحبونني بعطفهم الانساني، فقد كنت أحب الجمال كما يحبه سواي، فكان محرّماً عليّ ذلك الحب، لأنهم كانوا يرون ان الحب يكفي ان يصدر عني ليصير جريمة. وهذا احط ما تبلغ اليه منزلة انسان في المجتمع.

قضى والدي نحبه وأنا ما ازال صغيراً فلا أذكر عنه شيئاً، وقد باتت كل عائلتي محصورة في والدتي الشيخة وحدها. أما شناعتي فما ادري اذا كان مسئولاً عنها والدي او والدتي. ولذلك لا أتّهم احداً بها. وكلّ ما في الامر أنني جئت الى هذا العالم، وان الله سلم حياة والدتي وهي حامل، فقذفت بي يوماً الى هذا الوجود.

وأيقظت بي والدتي ذات يوم عاطفة فيّ مكبوتة عندما سألتني اذا كنت لم افكر بعد في امر الزواج. وكنت أترقب منها مثل ذلك السؤال. فأخفيت المي وقلت لها انني سأتزوج يا اماه حين تحين السانحة.

فطلفت والدتي على جاراتها تستشيرهن . ومرت الايام فكنت أراها تعود كل مساء الى المنزل وقد ازداد وجهها تجهماً وكآبة . فسألتها عن سبب حزنها ، فتبسمت بمرارة وقالت : لا شيء يا بني . ولكنني كنت أشعر أن ثمة انقباضاً في قلبها ...

ومر اسبوعان على تلك الحال ، وقد امتنعت والدتي بعد ذلك عن مغادرة المنزل . وكانت نتيجة مساعيها انضمام المشفقين الى الهازئين ، فصرت أضحوكة الجميع ! حتى انني سمعت احدهم يوماً يقول : يا له من فتى مسكين ! ما أشد ما قاسته والدته من المتاعب في سبيل تزويجه ... أفلم يكن من العدل الهي ، أن لا يجيء العالم مثل هذا المخلوق الدميم .

والأنكى أن ما كان مدعاة للتمادي في الهزء والسخرية هو اهتمامي بهندامي . فقد حاولت أن أجمله ما استطعت . وبت أرفع شاربي وأثبتها بالاصماغ . فعندئذ مثلت لي الحقيقة القاسية وادركت قول العامة : إن الغراب اذا وضع في الماء لا يصير أوزة .

وحدث أن الحب في النهاية طرق بابي ، وكان حباً متبادلاً أورثني السقم والنحول لفرط ما كان عنيفاً . فقد وجدت نفسي شقيقة لها . وحدثت الأعجوبة التي حملت الي امرأة في عنفوان الشباب تتخذني بعلاً لها دون أن تلقي بالاً الى مظهري الذي كان ينفر الناس مني ...

وكان ذلك بعد أن أثر الفشل في صحة والدتي . وقد خابت آمالها بتزويجي ، فماتت صريعة الهم والشيخوخة . فمضت تلك التي كانت يد حنانها تتربت بالسلام على قلبي ، وآصرة حبها تشدني الى هذا العالم الخالي من الحب ، وعيناها ترنوان في جمالاً مخبأ خلف ستار شناعتي . مضت بعد أن

غادرتني وحيداً . فبكيت ، وما كان بكائي إلا على نفسي لأن أمي كانت قد بلغت من العذاب حداً لا يقوى أي بشري على احتماله .

وفي ذات يوم كنتُ أقاسي فيه آلام الوحدة اذا عصاً تقرع أرض المدخل ، وصوت فتاة يقول : تفضّل علي بالصدقة أيها السيد ! أنا فتاة عمياء ! فأثر بي قولها حتى تناسيت ما أنا فيه من بلاء . ورحت أفكر في فقر تلك الفتاة وعماها . فأدركت أنه سعيد ذلك الانسان الذي يستطيع أن يرى وأن يسمع .

ولم تكن الفتاة ذات مظهر حسن ، ولكنها ممشوقة القوام ، تغمر جسدها فتنة الشباب . فعطفت عليها ودعوتها بأدب الى الاستراحة . ولمّا أبصرتها مادّةً يديها لتلتمس الباب ، أقبلتُ عليها لآخذها من ذراعها وأقودها الى الكرسي في أقصى الرواق .

وكانت المرة الاولى التي لمستُ فيها فتاةً فأحسست بيبوسة في فمي وتراخٍ في ركبتيّ . واذا بانفاسي تتسارع وقد تملكتني رعشةُ المحموم . وبعد ان أعطيتها روبيةً ، جعلتها تشاطرني طعامي . فروتْ لي أن اسمها ليلى ، وأنها تعيش مع والدتها في كوخٍ بالقرب من أحد المصانع . وكان وجهها ذو العينين الحزينتين يندى بماء الشباب . ولما غادرتْ منزلي طلبتُ إليها أن تعود اليه بين الحين والحين .

وكثر ترددها عليّ ، فكنا نتحدث عن شؤون شتّى . وبتُّ أشعر أن ذلك العبء الثقيل بدأ ينزاح عن قلبي وأن الحياة بدأت تبسم لي . وكنت أديم التفكير في عينيْ ليلى . فكم كان يكمل جمالها لو كانت تبصر؟ أما قيل إنّ نظرة من عيني امرأةٍ قد تدفع المرء الى الجنون ؟

ولكن .. هل كانت ليلى متسولة لو كانت تبصر ؟ ولو انها متسولة وعيناها تبصران افكانت ترضى مني بغير العطاء ! أو كانت تجيء الى منزلي كل يوم لتبادلني أحاديثها المفعمة بالصداقة ؟

وتنبّه الناس الى اجتماعاتنا ، فما زادهم ذلك الا هزءاً (بالرجل القرد) وسخريّة مرة بهـــذه الرواية الغرامية التي كان بطليها شابٌ مسخٌ وفتاةٌ عمياء .

وسألتها يوماً : « كيف ترَينني يا ليلى ؟ »

واذا ابتسامتها تغمرني بالغبطة ، فاستأنفتُ قائلاً : « أجيبي ياليلى ! »

فقالت لي بعذوبة : « وهل بلغك أنني قلت عنك ما يسيء ؟ »

كان جوابها الصريح باعثاً لهنائي وقد شجعني ذلك على سؤالها ، وأنا اختلج صبابةً عما اذا كانت تكنُّ لي في صدرها بعض ما أكنُّ لها من العواطف في صدري . فطأطأتْ رأسها بحيـــاء دون أن تجيبني . ولم أشأ أن أتوغل في المجازفة أكثر مما جازفت في ذلك اليوم . وما طال بها حتى تركتني وانصرفتْ .

وبتُّ وأنا لي أيضاً اسم « ليلى » أتمتم به بشغف ! وأصبحتْ لي في هذه الحياة فتاة أنتظر قدومها بشوقٍ وحنان ! فما أسعدني وقد انبجس من أعماق حياتي القاحلة ينبوع عذوبة وهناء .

بيد اني ما انفردتُ بنفسي حتى تملكني الجزع . فقد تجلى لي أن اعدائي سيجتمعون بليلى ليحدثوها عني ويملأوا رأسها بأقاصيص قبحي . . وقد يكونون فعلوا ذلك .. فمن يدري ؟ ولكن هل تفرق ليلى بين الجمال والقبح وهي لاتفرق بين الليل والنهار ؟ لقد روتْ لي انها عمياءُ منذ مولدها . وهي ستعود غداً وأنا لا شاغل لي غير فكرة الزواج ، فما العمل ؟ وهل سيوافق رجال الدين

على تزويجنا ، ام انهم سيرفضون ذلك ؟ انني نسيت ان اذكر لك انني مسلم وسيناوئنا العداء أتباع الدين الواحد والآخر . فهل من العدل ان يحول حافظو الشريعة دون زواج رجل وامرأة ؟

لم أستغرب قط اضطرابها عندما سألتها في اليوم التالي عما اذا كانت تود أن تصير زوجتي . فان المعضلة الدينية حملتها على التردد والإحجام . فاستطردت في حديثي قائلاً لها : الا يكفي ياليلى ان اكون إنساناً ؟ ان الله ارسلك الي ! اما الطوائف والأديان فما هي الا بدعة البشر .

ورأيت شفتيها ترتجفان بينما كنت مندفعاً في اقناعها . وكنت كمتهم ينتظر حكم القضاة ، فقد كان على ليلى أن تحكم علي بالحياة أو الموت . ولكنها ظلت صامتة .

فأحسست بضيق في صدري وجفاف في حلقي وقلت لها انني اود ان أضمن حمايتها ، فتشوليني تلك السعادة !

فأجابتني بقولها :

- انني أود النزول عند رغبتك ، على رغم مـا عودنا إياه الناس من مظاهر الاحتقار . فما ان أمر بهم حتى أسمعهم يقولون : « دونكم خليلة الرجل القرد ! » وهم يعتقدون أنك بالغ حداً عظيماً من الشناعة والقبح .

- وأنت ، ياليلى ماذا تعتقدين ؟

- أنا لا أعلم عن اي قبح يتكلمون . فانني لم أر قرداً في حياتي ؛ فليقولوا ما شاءوا ! ولو انك تحولت الى اجمل رجل في العالم لما اختلفت على في شيء . انني ارى هذه الدنيا وما فيها من جمال وقبح بعين قلبي . ولما كان لا يهمك ان تكون انت مسلماً وانا هندية فذلك لا يعنيني ايضا . وقد حسبت

طيلة حياتي ان المحبة والعطف والإخلاص لبن يحبوني بها احد في هــذا الوجود . ولكن ...

• • •

– ان هنالك كلمة « لكن » ياليلى ؟

– اجل هناك كلمة « لكن » ! والسبب هو المهنة التي يفرضهـا علي حياتي . فأنا .. انا لست عذراء . فعلي رغم عاهتي ، اردت ان احب ايضـا . وطالما صرفت الأيام الطوال مستمطية حتى اعود بعدها وجرابي افرغ من جوفي وجوف والدتي . وبالتالي بعت جسدي تحت جنح الليالي ، وانا الآن اود إلا أُلطخك بقذارتي . وكنت اعتقد ان الرجل لا يحسن الى المرأة حباً بالإحسان فحسب .. ففي المرّة الأُولى التي اجملت بها معاملتي ، حسبت ان الأمر سيكون معك كذلـــك .. فعفواً ... إنك اليوم الرجل الوحيد الذي احترمه .

وظللت مبهوتاً صامتاً الى ان ثبت الى نفسي فقلت :

ما كلّ ذلك يا ليـــلى غير نتيجة الأنانية الخسيسة في الرجل . وانني سأضرب صفحاً عن الماضي ، فلا تأبهي بالأمر .

• • •

وبعد أيام قليلة جرى الحدث الأكبر ، فهاج الحيّ وماج من أقصاه الى أقصاه . وأقبلت ليلى ووالدتها الى منزلي لتشاطرني مسكني ، فواكبتهما لدى قدومهما ضحكات الهازئين وقهقهات المتهكّمين . وأبى الناس الإقناع بأنّ مجيئهما كان نتيجة زواجي بل لى زواجَ تناغمٍ وحبّ . فكنت أشجّع ليلى على

احتمال تخرُّصاتهم غير آبهٍ لما كان يتفوه به أولئك الصعاليك البلهاء من السخافات !

وانتظمت حياتنا الزوجيّة ، فلم تكن بالبسيطة الهينة ، ولكنها تنسجم مع حاجة حيويّة فينا الى المتعة والنشوة . وقد عُزِلنا عن الناس لما رفعته حولنا الاعتبارات الاجتماعية والدينية من حواجز . ولمّا كنا على استعداد من قبل الى مجابهة هذه المصاعب فقد استسلمنا الى الواقع باذعان .

وحدثت الأعجوبة ... فليلى على وشك ان تصير أمّاً . فلا عاهتها ولا شناعتي حالتا دون ان تعمل الطبيعة عملها . وقد صممنا الآذان عن قهقهات الناس وضوضاء استهزائهم . وأصبحت تتالى عليّ لذاذاتٌ لم أكنْ لأحلم بها ، فقد أحببتُ وتزوّجتُ وسأصير الآن أباً . فالحمد لله على ماأولانيه من نعم !

ولكنّ ليلى مرضتْ قبل شهرين لموعد ولادتها . فاستدعيتُ لهـــا طبيباً يُعاينها ، فطمأنني أنّ لا خطر عليها وأنها ستشفى مما بها . غير أنّه سألني اذا كانت وُلِدتْ عمياء . ولما فحص عينيها بتدقيق قال ان باستطاعته أن يعيد إليها بصرها بجراحةٍ لن يستطيع اجراءَها الا بعد امتلاكها العافية بعد الوضع .

وكانت كلمات الطبيب كأنها نصلٌ دُقّ في عظمي . فهو سيعيد البصر الى ليلى ... ليلى التي تحبّني بقلبها . ولا أدري اذا كانت ستظلُّ مقيمةً على حبّيه متى تفتّحت عيناها على سحنتي القبيحة .

. . .

ماذا أقوله للطبيب ؟ أأرفض إجراء الجراحَة ؟

حاولتُ أن أظهر فرحي المكذوب أمام ليلى . فكان قصارى ما استطعت قوله إن الطبيب يرى أن بإمكانه شفاءها . ولكن أين لي من

يفهمها أن في إرجاع البصر اليها نضوباً لمعين حياتي ! أليس البصر للمرء أعز مافي هذه الحياة ؟ فيا لله ما أعظمها اذن سعادة من يُبصر بعد عمى !..

وكانت ليلى تعرف قلبي ولاتعرف حقيقة ما يقوله الناس عني . فأسرّتْ إليّ انها تودّ أن تبصر من أجل سعادتها وسعادتي ، فهي ستراني بأمّ عينها فتزداد حباً لي .

وأبرقت أسارير وجهها على رغم ما نالها من مرض . واقبل عليّ الطبيب يزودني بتعلياته طالباً إليّ أن أزوره بعد ولادة الطفل، وبعد أن تكون ليلى قد استعادت كامل نشاطها ، حتى يُعيّن الموعد لاجتراح الأعجوبة .

واستولى على ليلى الهدوء بينا كان يعصف إعصارٌ في صدري. فيمّمتُ أقصى الشرفة . حيث اتخذت لنفسي مُقْتَعَداً . وكنت أشعر أن عالمي سينهار. فلعنت الطبيب ووددت لو عملت على إهلاكه . ثم فكرت في ما يقوم به من واجب . فاقنعت نفسي أن لا علاقة للطبيب بما يعترض حياتي الخاصة من مصاعب وشؤون . وقلت لنفسي فلينبثق النور من عيني ليلى ، وليُسْبِغ عليها الله نعمةَ البصر ، وإنما فليكن ذلك بعد أن أحول أنا الى تراب الأرض ، فلا ترى ليلى بعينيها ما هو الرجل القرد ! لأبقى حياً في نفسها كما كنت حتى اليوم ! ولكنها قد تنساني بعد موتي .. وان مجرد افتكاري بنسيانها إياي كان يمزق قلبي .

وولدت ليلى طفلاً ، فكانت ولادته مدعاة جديدة لسخرية الناس وتهكمهم . وكان من حظ ذلك المخلوق الصغير البريء أنه لم يرث شيئاً من شناعة والده ولا من عاهة أمه .

وتماثلت ليلى صحتها سريعاً . فذكرتني يوماً بما كنت اتظاهر بنسيانه عن أنانية وخوف . وسألتني اذا كان لم يحن الموعد بعد لزيارة الطبيب واجراء

العملية . فوعدتها بأني سأقوم بزيارته في النهار نفسه وكأن الجثة في غرفتي الأوقيانوس فغرت فاها لتبتلعني ! ولكنني عزمت على أن لا أصدق في وعدي فغادرت المنزل لساعتين عدت بعدهمـــا لأخبر ليلى ان الطبيب قد مات . ولم استطع ان ازيد كلمة على ماقلته ولا تمكنت من ان اظهر على الأقل أسفي لموته ، وهو الذي كان يتوقف على حياته شفاء ليلى .

وكاد يخنقني السر الذي بسطت عليه حجاباً من الأثرة وحب الذات . واحسست أن ضميري سيظل مُتَضَعْضِعاً الى الأبد هذه المحاولات الخرقاء التي شئت ان انقذ بها سعادتي .

ومرت الايام دون أن أستقر على حال من الطمأنينة . حتى تحققت ذات مساء وانا داخل الى منزلي بحدث أدركت بعده كيف تتقطع نياط القلوب .

• • •

تركت والدة ليلى في وسط المخدع طستاً كبيراً من النحاس . وحدث ان الطفل بكى ، فهرعت ليلى ملهوفة الى الناحية التي فيها سريره دون ان تستهدي كعادتها بعصاها . فعثرت بالطست . وسقطت بعنف على عضادة الباب فشجت رأسها . وتساقط منه الدم بغزارة ، فحملتها فوراً الى المستشفى .

واستدعاني أحد الأطباء ليخبرني أن سقطتها كانت ولا شك عظيمة ، لأن جرحها هو في غاية الخطورة . ثم قادني الى قرب ليلى ، وكانت تتلوى ألماً على سريرها . فلما أحست بوجودي قالت : — انك أتيت ولكنني ذاهبة . ياليتني تمكنت من رؤيتك بعيني . . . فما كان أشد عذابي لهذا التمني الذي جاشت به نفس ليلى ! فقلت لها :

– لئن تريني ياليلى بعيني قلبك فأحب إلي من أن تريني بعينين مبصرتين.
فكوني مطمئنة وستشعرين بما قريب بتحسن .

وأصغت ليلى الى قولي ، ثم ساد السكون . وكانت الشمس تجنح الى المغيب . بينما تئن ليلى متألمة . وكان الله وحده يعلم مبلغ عذابي في تلك الساعة، لأن سري الرهيب كان يضيق علي أنفاسي فما عدت أستطيع صبراً . وأقبلت أم ليلى ووضعت قربها طفلها . وكأن عدوى الموقف نالت منه ، فجعل يجهش هريراً . وكان نحيب جدته يناغم هريره. فأحسست بوحدة وكآبة لاحد لها .

وطارت روح ليلى على مهل الى خالقها . ولا أذكر ماالذي صنعته حينذاك . وكان من هول الموقف أنني أحسست أن قلباً كاد ينفجر بينما كف قلب آخر عن الخفقان . وكل مـــا أذكره أن الشمس غابت في تلك اللحظة، فهوى علي ظل كثيف وسحقني .

وبعد كل ذلك ، مايزال الناس الذين لايرون في إلا قبحي،ولا يعلمون عني غير علاقات غرامي ، يتضاحكون مني ويتغامزون علي كلما مررت بهم .

* * *

محتوى

حبّات زمرد

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥	٩	معايتها	معانيّها
١٧	٧	الشنفري	الشنفرى
٣٨	١٩	ونجارة	وتجارة
٤٧	١٤	الؤرخون	المؤرخون
٥١	٧	بايجاز	بإيجاز
٩٣	١٣	القون	القرن
١٠٥	٧	لوردة	الوردة
١١٦	١٣	باعاريدك	باغاريدك
١٣٢	٨	برد	يرد

فهرس عام

الموضوع	الصفحة

٢٠٠٠/٥/١٩٦٦

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي

حبات زمرد

ولد شاعر المهجر الاستاذ شفيق معلوف في زحلة عام ١٩٠٥ في أسرة نادرة موهوبة حمل رجالها رسالة القلم وكانوا رادة الشعر والفكر .

أبوه هو الأستاذ الكبير عيسى اسكندر معلوف وأخواه فوزي ورياض أشهر من أن يعرفا .

بدأ حياته الأدبية محرراً في صحيفة الف باء الدمشقية وبقي فيها ثلاث سنوات .

هاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٦ بعد أن أصدر ديوانه الأول « الأحلام » .

كانت سان باولو مغتربه .

ترأس فيها « العصبة الأندلسية » وأسهم في الكتابة في مجلتها ومارس ألوان النشاط الفكري كلها .

صدرت ملحمته الشهيرة عبقر عام ١٩٣٦ وديوانه « لكل زهرة عبير » عام ١٩٥١ وديوانه الآخر « نداء المجاذيف » عام ١٩٥٢ .

كتابه « حبات زمرد » مجموعة مقالات تناولت أدبنا الحديث منه والقديم كما عرضت لأدب الفرس والهند .

المقالات لمح مشرق ذكي امتاز بالأصالة والطلاوة والقدرة على الايحاء .

قالت عنه أديبة برازيلية : ان « شفيق معلوف » هو كبرياء الشعر العربي في المهجر وفي كل قطر ترتفع فيه راية الأدب .



مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي

دمشق ١٩٦٦

سعر النسخة

١٥٠ ق . س